النيّل عبد القادر أبو قرون

جوهر الحياة

The Essence of Life

مفتتح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تجلّى بنعمة الوجود ، وباسمه الحقّ خلق السموات والأرض وما بينهما ، قال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ . . .**﴾[1] . وبهذا الاسم العظيم تبارك الذي بيده الملك ، وظهر هذا الوجود الكوني بجماله وكماله وسخّر كلّ ذلك للإنسان ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ . . .**﴾[2] وجعل الإنسان خليفة فيه لما أودع فيه من عظمة النفخة الإلهية ، التي لم تنلها الملائكة ، لأنّها نفخة من روحه سبحانه ، وبهذا الشرف العظيم كانت للإنسان الخلافة في الأرض ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ . . .**﴾[3] وكرّمه وفضله على كثير من خلقه وفضّله ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ**

---

(١) سورة الحجر : ٨٥ .

(٢) سورة الجاثية : ١٣ .

(٣) سورة فاطر : ٣٩ .

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1] .

وبهذه الخلافة صار الإنسان مركزاً للوجود ، ومعنياً بإعمار هذه الأرض التي مهّدها الله له ، وقدّر فيها أقواتها لينشئ المملكة الإنسانية المثالية التي قِوامها صالح الأخلاق ، لينعم بالسعادة كلّ من فيها . فمن تحلّى بصالح الأخلاق في هذه الدنيا تكون سعادته معطّرة بلذّة عظيمة ، وذلك حين يعلم أنّ السعادة التي تنتظره بعد نهاية هذه الحياة أمر لا يكاد يوصف بعقل محدود ، وهي دائمة ، وأنّ السعادة الحالية مقصود منها معرفة القليل مما ادّخره الله لعباده في الحياة في الدار الآخرة .

وما المنغصات والمكدّرات في هذه الحياة إلا ليعرِف الإنسان قيمة وجود سعيد لا توجد فيه هذه المكدرات ؛ فلولاها ما عرف قيمة أضدادها . قال تعالى ﴿ . . . **وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** . . . ﴾[2] فالضرر الذي يصيب الإنسان في دار الدنيا ما هو إلا ليعرِف قدر السعادة التي يريدها الله لعباده خالية من الأضرار في الدار الآخِرة . لذلك كلّ ما يصيب الإنسان من أذى ، زيادة على تعريفه الفرق بين العافية وضدّها ، يكون له كفارة لما يكون قد بدر منه من سوء سلوك .

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٦ .

ويكتب الله له من الحسنات أكثر مما ناله من الضرر أو المشقّة . قال تعالى ﴿ . . . **وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1] «**وقد جاء في الأثر أنّ العبد إذا دعا لمبتلى اللهم أرحمه يقول الله سبحانه كيف أرحمه مما به قد رحمته**»[2] . فالمراد من العبد هو اللجوء إلى الله والتقرب إليه ليكشف عنه السوء ، والله مجيب ، ويحبّ بل يفرح بلجوء عبده إليه ، فاسمه المجيب سبحانه قال تعالى ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾[3] .

الله سبحانه أخرج هذا الوجود منه ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ . . .**﴾ لا من عدم سابق ، ولا موجود معه . فهو الأوّل بلا أولّية زمنية . وهو الواحد لا من عدد ، المتجلّي باسمه الظاهر ، فكان هذا الوجود الظاهر ، ولا يخرج من الواحد إلا واحد . وتبارك سبحانه في هذا التجلي الظاهر بالدرجات . فهو رفيع الدرجات ، فبدأ التعدد بهذه الدرجات رغم عدم اختلاف النوع ، لأنّها جميعاً منه في واحديته ، فكانت هذه الحياة الدنيا دلالة على بديع التجلّي

---

(١) سورة التوبة : ١٢١ .

(٢) كتاب «حادي الأرواح» لابن قيم الجوزية .

(٣) سورة النمل : ٦٢ .

الإلهي في الخلق ووجود الإنسان الخليفة فيها لإعمارها . فسبحان العليم الحكيم المتعالي عن الوصف العظيم .

ولم يجعل سبحانه هذا التجلي الظاهر العظيم غاية للإنسان ، بل أخبر بأنّ هذه الحياة الدنيا ما هي إلا متاع ومعبر للحياة الخالدة ، التي فيها من السعادة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فعلى الإنسان إحسان التصرف هنا في هذه الحياة بالأخلاق التي أرسل الله ّبها رسله إعانة لاستقامة السلوك وشفافية التعامل . ووضع سبحانه الشرائع للتحاكم بها لانسجام المجتمع وترابط الإنسانية . لذلك فإنّ الذي يكرمه الله ويحسِّن عمله وخُلقه ويدخله الجنة – حيث لا تقييد ولا حساب ولا عقاب لأنّها دار جزاء– يكون قد وصل إلى مرحلة من الرقيّ الإنساني هنا في هذه الدنيا ما لا يحتاج معه هناك في الآخرة إلى توجيه أو رسالة من رسول لكيفية إحسان التعامل ، وذلك لاستحالة وجود سلوك لا أخلاقي في الجنة .

مقدمة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم حمداً يليق بجلاله وعظمته وتقديسه الدائم ، والشكر لرسول الله المعصوم النبيّ الخاتم القائل «**الله المعطي وأنا القاسم**»[1] صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله عدد ما لا يتناهى وجوده إلى اليوم المعلوم .

وبعد

الحمد لله ذي الجلال والإكرام الخالق البارئ المصوِّر البديع الذي خلق باسمه الحق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما كان يعجِزه الخلق سبحانه بقوله «كن» في أقل من لمح البصر لكن حكمته تعالى فوق العقول والأفهام ، وما هذا الوجود الظاهر إلا مراده بكلّ مظاهره وما فيه ، فأنشأه وأحكمه ثم جعل له نهاية ، لأنّه ليس الغاية ، وسيعيده سبحانه بنشأة أخرى ليس لها نهاية ، كما أخبرنا سبحانه في كتابه الكريم ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ**

---

(١) البخاري .

﴿اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] وتعيها أذن واعية .

خلق الله سبحانه هذه الحياة الدنيا وجعل لها نهاية . فهي فترة محدودة يعيش فيها كلّ إنسان عمراً محدوداً ليتعلم فيه إحسان كيفية التعامل وعظمة الأخلاق ، ليعرف حلاوة الحياة في مجتمع مثالي أساسه الحبّ ، منزوع الغلّ من صدور كلّ من فيه ، وهي جنة الخُلد . فعلى الإنسان أن ينظر إلى هذه الحياة نظرة المتبصِّر ، لعِلمه أنها ليست دار خلود وهو فيها كذلك ، فعليه العمل لما سيكون ، ولأجله خُلِق ولا يحصر عقله في هذا الوجود الذي يعلم أنه زائل لا محالة .

ولحبّ الله سبحانه للإنسان نفخ فيه من روحه حين خلقه وكرّمه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ . . .﴾[2] واستخلفه في هذه الأرض وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض . وما جعل الله سبحانه الابتلاءات للإنسان -كما بيّنّا- إلا ليعلم ويحس بعظمة المعافاة منها ، فيذوق لذة العافية في الحياة السليمة من الكدر . فجعل الله سبحانه الحياة الآخِرة هي ما يصبو إليه الإنسان من لذة الحياة اللامتناهية . ولا يحسّ الإنسان بعظمة الحياة الأخرى وحلاوتها إلا إذا كان قد عرف في الحياة الدنيا

---

(١) سورة العنكبوت : ١٩-٢٠ .

(٢) سورة الإسراء : ٧٠ .

حلاوة المعافاة من الابتلاءات وأنواع الكدر .

فما الحياة الدنيا إلا مدرسة على العاقل أن يكون من الناجحين فيها ويحذر الرسوب لأنّ الإعادة لمن يرسب تكون في الدار الآخرة حيث يقول الراسب ﴿ . . . **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** ﴾[1] . فهذه الحياة الدنيا ليست هي الغاية للخلق ، بل هي مرحلة لإحسان التعامل والاستعداد فيها للحياة الباقية بعدها التي ﴿ . . . هِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ولمعرفة الخالق البديع ومعرفة النفس التي هي نسخة من الكون ، «**وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر**»[2] . (أشرنا إلى ذلك في كتابنا «كلية الإنسان»)[3] . وبهذا أُرسِل الرسل عليهم السلام . فعلى الإنسان أن يعلم أنّ وجوده في هذه الدنيا إنما هو مرحلة لما بعدها ، فلا يحصر نفسه فيها باتباع الشهوات والملذّات ، ويعطّل العقل فيما ينبغي عمله لإسعاد نفسه في الدارين . فالدين لا يمنع الإنسان من الطيبات في هذه الدنيا بل يقول له ﴿ . . . وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا . . . ﴾[4] ولكن لا يجعل الحياة الدنيا غايته بل مجالاً

---

(١) سورة الفرقان : ٢٧ .

(٢) علي ابن أبي طالب .

(٣) كتاب «كلية الإنسان» الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ٢٠١٢ .

(٤) سورة القصص : ٧٧ .

للتفكّر في هذا الكون الفسيح ، وما سيكون عليه المآل وما يجلب له السعادة في هذه الدار وما بعدها ، فينال الثناء من الخالق سبحانه ﴿ . . . **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ . . .**﴾[1] .

ونهاية هذه الحياة الدنيا لا تعني الفناء المطلق إنما هي تبديل من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى . قال تعالى ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[2] . وقال تعالى ﴿ . . . **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ . . .**﴾[3] . ولكن بما أنّ هناك تبديل لوجودهما يقول سبحانه ﴿ . . . **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . . .**﴾[4] فالسماوات والأرض باقية لكن بوضع يختلف عما عليه الواقع الآن وهي دار الخلود ﴿ . . . **خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ . . .**﴾[5] . فنهاية الحياة الدنيا هي نهاية الزمن ، لأنّ الزمن أمر متوهَّم ناتج عن دورة الفلك . والحياة الأخرى هي الخروج من القيد الزمني الأرضي .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٣) سورة آل عمران : ١٣٣ .

(٤) سورة الحديد : ٢١ .

(٥) سورة هود : ١٠٨ .

الأجل

هناك أمر يعرفه كلّ إنسان ولا بدّ له منه ، وهو أمر يقيني وعليه يترتب سلوك الإنسان في معاملاته مع الآخر في هذه الحياة ، وفي ما يريد لنفسه من أسباب السعادة كيفما كان اعتقاد هذا الإنسان في الخالق سبحانه ، كفراً أو إيماناً . وهذا الأمر هو نهاية حياة هذا الإنسان ، سواء جاءت من خلال الموت أو القتل . وهو أمر لا يمنعه تقدُّم الطبّ مهما بلغ من التطور والرقي ، ومهما وصل إليه التقدم العلمي أيضاً . فالأمر إلهي لا سيطرة للبشر عليه ﴿ . . . **إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[1] ويخلط الناس عادة بين مفهوم الموت والوفاة ، وهذا أمر جليّ في القرآن الكريم . فالموت قد يحدث بعد الوفاة فالله سبحانه ﴿ . . . **يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . .**﴾[2] وفي آية أخرى قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا**

---

(١) سورة نوح : ٤ .

(٢) سورة الزمر : ٤٢ .

جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ . . .﴾[1] وقال تعالى عن عيسى عليه السلام **﴿ . . . إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . .﴾**[2] فلم يمته ليرفعه إليه ميتاً ، فعيسى عليه السلام رفعه الله إليه مكانة لا مكاناً – تعالى الله عن المكان– ولم يُقتَل قال تعالى **﴿ . . . وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ . . .﴾**[3] .

والقتل هو فعل تعدٍّ على النفس ، قد يصدر منها أو من خارجها ، تنتهي الحياة بسببه . أما الموت فينهي الحياة كذلك ولكن دون تعد ، وتسبقه الوفاة . ويتضح ذلك في قوله تعالى **﴿ . . . أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ . . .﴾**[4] وقوله تعالى **﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا . . .﴾**[5] وبناءً على هذا لا يصح ما وصَلنا من روايات عن نهاية حياة يحيى عليه السلام بأنّه قُتِل وفصل رأسه عن جسده وأُعطي لمومس من بني إسرائيل ، فالآية واضحة في موته لقوله تعالى **﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ . . .﴾**[6]

---

(١) سورة الأنعام : ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٥ .

(٣) سورة النساء : ١٥٧–١٥٨ .

(٤) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٥) سورة الحج : ٥٨ .

(٦) سورة مريم : ١٥ .

ولم يقل يوم يُقتل . وكما أوضحنا فقد أخطأ من ظنّ الموت لعيسى عليه السلام ، لأنّ الوفاة ليست هي الموت ولا تعني الانتقال من الدنيا ، بل هي أمر يسبق الموت وقد يحدث أو لا يحدث الموت بعدها . فلا بد من ظهور عيسى عليه السلام هادياً بنهج محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، وإيمان بعض أهل الكتاب به عند ظهوره آخر الزمان قبل موته ، وقد كان بعضهم يعتقد بأنّه قتل وصلب . قال تعالى ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ . . .**﴾[1] والوفاة التي تفضي إلى الموت يقوم بها ملك الموت ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ . . .**﴾[2] وملك الموت لا يتصرّف من عنده إنّما هو موكل من عند الله ، فالآمر هو الله سبحانه الذي يتوفّى الأنفس حين موتها عن طريق مَلك الموت .

والموت هو مفارقة هذه الحياة والانتقال إلى الحياة الأخرى . ولكن نجد أكثر الناس في غالب تصرفاتهم في نسيان تام لحدوث هذا الأمر لهم ، حتى بعض أولئك المجتهدين في العبادة والنسك لأجل ما بعد الموت ، وهذا من أمراض النفس وطول الأمل . ولكن بما أنّ الموت أمر يقيني في النفس الإنسانية فإنّ سلوك الإنسان يرتبط به . ومن الناس من هو مدرك دون

---

(١) سورة النساء : ١٥٩ .

(٢) سورة السجدة : ١١ .

نسيان لنهاية حياته فيحرص على ألا يضيّع شيئاً من عمره فيما لا يعود عليه بخير ، فيمتاز بين الناس بحُسن الخُلق وطيب المعاملة ولطف المقال واحترام الآخرين ، فيحبّه الناس لتكييف نفسه بهذه الصفات ، وهي حبّ الذات في الإنسان . وبعضهم يغلب عليه النسيان فيتّبع الهوى . ﴿ . . . **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** . . .﴾[1] . والهوى هو الأمر الذي اتباعُه يورث الإنسان حبَّ العمل في الملذات والشهوات بالتكرار والاستحواذ ، دون مراعاة للآخر في تعامله فلا يكسب لنفسه احترام الناس . والاتباع قد يكون عن حبّ . فالهوى موجود عدمي باتباعه يتصرّف الإنسان بمقتضياته ، ألا وهي الانغماس في الشهوات في هذه الحياة الدنيا ، وقد يغيب عن باله أو يتناسى أنّها دار ممر ولا بدّ من مفارقتها «**فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**»[2] . ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[3] .

---

(١) سورة القصص : ٥٠ .

(٢) الترمذي .

(٣) سورة العنكبوت : ٦٤ .

الدعوة بالأخلاق لا بالمعجزات

الإنسان إذا كان صاحب معتقد في الخالق جلّ شأنه أو غير ذلك ، فإنّه لا يتصرف في هذا الكون إلا ضمن السنن المتناسقة التي جعلها الخالق فيه ﴿**كُلاً نُّمدُّ هَـؤُلاَء وَهَـؤُلاَء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[1] . فالله سبحانه دبّر هذا الكون بتدبير دقيق محكم تعالى الله سبحانه فيه عن العقل والتفكير ، لأنّه سبحانه أكبر من ذلك . فهو مقدِّر بعِلم ، ومدبِّر بأمر ، ومُجرٍ بقدر . فالعقل الإنساني يعجز عن الإدراك الكامل لمعاني فعل الله ومراده من خلقه إلا بما قدّر له حسب وسعه . لأنّ الله سبحانه يدبِّر الأمر بعلم لا بعقل ﴿ . . . **وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** . . .﴾[2] . فالعِلم أكبر من العقل ولا حدود له ؛ ولا يأخذ العقل منه إلا قدر وسعه ، فتعالى واهب العقل . وقد جهل من حصر العِلم في العقل ، إلا إذا كان قصده ما انتهى إليه العقل من العِلم ، وفي هذه الحالة يكون العِلم عنده هو عين المعلومات .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

والله سبحانه ذكر في كتابه الكريم مدح حبيبه محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بعظيم الأخلاق لا بعظيم العِلم ، لأنّ الأخلاق من الثوابت . أما العِلم فلا نهاية له ولا يحاط به ﴿ . . . **وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** . . .﴾[1] . ولذا قال تعالى للحبيب صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[2] والمقصود بها هنا العِلم بالله لا العِلم بالموجودات ، لأنّ الرحمة التي هي محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله وسعت الموجودات أي الأشياء ؛ وتعالى الله وتنزه سبحانه عن الشيئية . فطلب زيادة العِلم مقصود به العِلم بالله . قال تعالى ﴿ . . . **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** . . .﴾[3] وتعالى الله سبحانه عن الشيئية لمحدوديتها . أما الحديث «**ما وسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب المؤمن**»[4] فالوسع هنا لإله المعتقدات وهو تجليه سبحانه في قلب العبد بما يعتقده قدر وسعه ، أما الخالق سبحانه في ﴿ . . . **إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾[5] والمحيط يسع

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) سورة طه : ١١٤ .

(٣) سورة الأعراف : ١٥٦ .

(٤) إحياء علوم الدين .

(٥) سورة فصلت : ٥٤ .

المحاط ولا يسعه غيره . وبما أنّ العِلم لا حدود له وفيه ما لا يتناهى وجوده ، فطلب زيادة العِلم لا يعني نقص عِلم محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بالأشياء ، بل هو طلب عِلم ما لا يتناهى وجوده . فمحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو مدينة العِلم كما قال «**أنا مدينة العِلم وعليّ بابها**»[1] . وعليه لا يوجد تناقض بين الآية والحديث ، فالآية تخصّ العِلم بالله اللامحدود ، والحديث يخص العِلم بالأشياء أي الموجودات الحسّية والمعنوية .

فسنن الكون ثابتة متناسقة لا يخرقها الله سبحانه بآية إلا لرسول من رسله أو كرامة لولي من أوليائه . ولا تحصل المعجزة أو الآية الخارقة للعادة إلا للحفاظ على التناسق نفسه للتنبيه عليه ، لأنّ الإنسان هو الخليفة الذي اختاره الله وكرّمه في هذه الأرض . وبهذا يكون حدوث الآية الخارقة ليس خروجاً على تناسق سنن الكون ، بل للتنبيه عليها حين ينشغل عنها هذا الإنسان الخليفة باتباع الهوى .

فإرسال الرسل عليهم السلام بالبلاغ ، القصد منه السلوك بقيم أخلاقية سامية خطّها الله سبحانه لهذا الخليفة في الأرض لإعمارها ، فجاءت الشرائع لمراعاة الانضباط في هذا السلوك في التعامل الأخلاقي الذي يؤهّل الإنسان للحياة

---

(١) المستدرك للحاكم .

الخالدة . وهذه القيم التي جاء بها الرسل بالبلاغ هي التي تحفظها التشريعات . وسمّى الله سبحانه هذه التشريعات حُكماً . قال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿**فَفَرَرْتُ منكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[1] وقال تعالى ﴿**وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا . . .**﴾[2] وقال عن يحيى ﴿ . . . **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾[3] ولم يكن موسى ولوط ويحيى عليهم السلام حكّاماً على تلك البلاد . فالحُكم الذي آتاه الله موسى ولوطاً ويحيى عليهم السلام هو تشريع يتعامل به الفرد ، ويتحاكم إليه الناس لضبط معاملاتهم ، ولا يعطي أفضلية لأحد على الآخر . ولو طُبِّق هذا التشريع في دولة فلا فرق فيه بين الأمير والحفير ، ولا توجد فيه امتيازات لمن يطبقه . وكل الرسل والأنبياء مسلمون ؛ وجاءوا بالدين أي جاءوا بالإسلام ، لأنّ ﴿ . . . **الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** . . .﴾[4] . ولم ينشئوا حكومات لتباشر الرسالات معهم أو من بعدهم ، ولم يكونوا حكّاماً متسلطين على الناس ، وهم القمم في الإسلام ، قال تعالى ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا**

---

(١) سورة الشعراء : ٢١ .

(٢) سورة الأنبياء : ٧٤ .

(٣) سورة مريم : ١٢ .

(٤) سورة آل عمران : ١٩ .

هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا . . .﴾[1] فحُكم النبيين الذين أسلموا هو التشريعات التي أعطاها لهم الله سبحانه والتي يتعامل بها الناس في المجتمع ، فهي التي تحكم معاملاتهم ، أي هي الحُكم الذي يحكم معاملاتهم ، وما على الرسل إلا إبلاغهم بها ليحتكموا إليها لا ليتسلطوا بها عليهم . والرسل هم أيضاً مرجعية الناس في التعامل بهذه التشريعات وتطبيقها ، ولهذا يمكن وصفهم بما وصفهم به الله سبحانه ﴿ . . . **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا . . .﴾**[2] فرجوع الناس إليهم في تطبيق التشريعات ، أي ما يتحاكمون به لا يعني السيطرة على الناس ، بل هو أمر مقيَّد بالتقاضي والمعاملات وشئون الحياة التي تقع تحت مظلة هذه التشريعات . ولم ترد كلمة حُكم في القرآن إلا بمعنى التقاضي . ولكن بعض الناس خلطوا بين هذا النوع من الحكم والسلطة السياسية جهلاً أو قصداً مبيتاً ليحرِّفوا الدين عن صراطه المستقيم وطريقه الحقيقي . قال تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . .﴾**[3] فهذا يوضِّح أنّ النبي لم يكن حاكماً سلطوياً

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .

(٢) سورة المائدة : ٤٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٤٦ .

لذلك طلبوا منه أن يبعث لهم ملِكاً . فجهل من يقول إنّ الإسلام الذي جاءت به الرسل هو حُكم سلطوي ، أي دولة يجبر رئيسها الناس بالسيف على الدين ليكون محل القداسة والتشريع ، فيتخطّى هذا الحاكم ما جاءت به الرسل ليفعل في هذه الدنيا ما اختص الله به نفسه في الآخرة ، فيعاقب الناس على رفضهم للدين كأنه وكيل الله في الأرض بوكالة لم يعطها الله سبحانه حتى لرسوله ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾[1] فما جاء الرسل إلا بالبلاغ ﴿ . . . **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** . . .﴾[2] وشريعة الإسلام هي قانون يحكم تعامل الفرد مع نفسه ويضبط المجتمع في حدود الأخلاق وهذا هو معنى الحُكم ﴿ . . . **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلَاغُ** . . .﴾[3] .

من الناس من لا يستجيب للرسل بالبلاغ ، وربما يشكك في صدق الرسول ، أو يطلب ما يثبت به تصديقه والاطمئنان لذلك . ولا يدّخِر الرسل سبيلاً لإيصال الرسالة إلى الناس ، بقصد إخراجهم من الظلمات إلى النور ، وإقامة الخلافة في الأرض . ولا يفعل الرسل ذلك بتكوين حكومة دينية لإجبار

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة النحل : ٣٥ .

الناس وإكراههم على ما جاءوا به . ولا يطلبون بذلك سلطة أو حُكماً للسيطرة عليهم ولا أجراً ، كما فهم الجاهلون ، أو المحرِّفون عن قصد ، الذين قالوا إنّ الدين دولة وسلطة ربانية لقهر الناس سياسياً باسم الله ، ويضعون أنفسهم محل القداسة . فالحكومات التي ينشئها الناس لإدارة دولتهم هي حكم مدني يتعارفون عليه ، فإذا طبقت الحكومة التشريعات التي جاء بها الرسول لا تسمى هذه الحكومة دينية ، ولا يعطيها ذلك صفة القداسة ، ولا يعطي رئيسها الحقّ في التشريعات الدينية ، ولا يعطيه امتيازات دينية سلطوية . ولا يكون بصفته رئيساً للحكومة هو المسئول عن عقائد الناس ، وقد بينا ذلك في كتابنا «**الإسلام والدولة**»[1] . فالشريعة قانون يطبقه القضاء على رئيس الحكومة وعلى غيره . والتشريعات ليست هي كلّ ما بُعِثت به الرسل إنما هي الجزء من الرسالة الذي ينظم تعامل الفرد مع نفسه ويحفظ التعامل بين الناس لخلق المجتمع الفاضل ، فالبعثة هي كما وضحها صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**إنما بُعِثت لأتمم صالح الأخلاق**»[2] . وذلك يؤكد أنّ كل بعثات الرسل السابقين كانت صالح الأخلاق وأنّ بعثة محمد

---

(١) كتاب «الإسلام والدولة» الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ٢٠١٠ .

(٢) أحمد .

صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله أتت لتتمم صالح الأخلاق .

قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ . . .**﴾[1] لا تعني هذه الآية إجبار الناس على طاعة وليّ الأمر . ولا تعطي وليّ الأمر سلطة على الناس . بل هي توجيه للناس لاختيار طاعة وليّ الأمر ، ولكن لهم كامل الحرية في ذلك ، ولا يجبرون على الطاعة لوليّ الأمر ولا على طاعة الرسول قال تعالى ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ . . .**﴾[2] بل ولا يكرهون على طاعة الله سبحانه ناهيك عن طاعة وليّ الأمر ﴿ . . . **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . .**﴾[3] . أما قوله تعالى ﴿ . . . **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ . . .**﴾[4] لا يعني إعطاء سلطة إلهية للرسول للسيطرة على الناس ، فقد أكد سبحانه الحرية للناس في دينهم وعدم السيطرة عليهم وقال تعالى ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[5] وما أرسله سبحانه والرسل من قبله إلا بالبلاغ لذلك فإنّ قوله

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة الشورى : ٤٨ .

(٣) سورة الكهف : ٢٩ .

(٤) سورة المائدة : ٤٨ .

(٥) سورة الغاشية : ٢٢ .

تعالى ﴿ . . . فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . . .﴾ يعني إذا تحاكم إليك الناس ، لأنّ الحرية هي التي رعتها الأديان حتى لمن شاء أن يكفر .

وقد حصل من الحواريين مع عيسى عليه السلام ما يوضِّح كيفية حرصه على بقائهم في دائرة المؤمنين فهل كان ذلك بالتسلط والإكراه؟ ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1] فأنزل الله سبحانه المائدة لهم رغم خطابهم مع رسول الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كلمة الله التي ألقاها إلى مريم وروح منه ، حيث خاطبوه باسمه مجرداً دون توقيره بأنّه رسول الله وكلمته ، وسألوه عن استطاعة ربه هو ، ولم يقولوا ربنا أو رب العالمين ، ومن الواضح أنهم أرادوا التحقق من صدقه وما جاءهم به وأنه مرسل من عند الله ، فالذي قالوه من كلام لا يليق صدوره ممن قالوا ﴿ . . . نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2] .

يظن البعض أنّ الإيمان بالله دون رسوله منج ، وأنّ ذلك هو

---

(١) سورة المائدة : ١١٢-١١٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٢ .

التوحيد . ولكن التوحيد يستلزم الإيمان بالرسول قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ . . .**﴾[1] والزجر والعقاب ليس هو ديدن الرسل ، لأنهم منارات الأخلاق والسموّ والصفح والإحسان وهم كلمات الله التامّة . وما جاءوا إلا للإصلاح وإسعاد العالمين لا بإكراههم على دين الله وإرهابهم وعقابهم وقتلهم ؛ وإنّما بمجرد البلاغ وحُسن المعاملة ، ويعلمون أنّ الله لطيف بعباده ، فما كان الناس يخافون الرسل بل كانوا محلّ محبّتهم . فالإكراه والإجبار والعقاب إنّما هي صفات الحكومات التي تسمّي نفسها دينية ، وهي التي لا تقوم إلا على التسلط والإكراه والسيطرة ، وفرض ذلك على الناس وسلب حريتهم ، وليس ذلك من الدين في شيء . فلا يصحّ لحكومة أن تصف نفسها بأنّها دينية أو إسلامية . وحتى لو اتخذت الشريعة قانوناً لها فهي حكومة مدنية لا دخل لها في عقائد الناس ، وليس للحاكم الحق في ذلك وإكراه الناس على اعتقاده ومذهبه ، إنّما هو فرد كغيره من الناس أمام قانون الشرع . فليس المقصود من تعامل الرسل إلا تنبيه الإنسان لدوره في خلافة الله في الأرض بالبلاغ رغم ما يصدر عنه من جنوح . وليس لغير الرسل الحق فيما لم يكن للرسل في إكراه الناس على الدين .

---

(١) سورة الحديد : ٢٨ .

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1] فأنزل الله سبحانه المائدة . فما كانت آية المائدة إلا للحفاظ على سلوك وقيم الإنسان . فقد صدر من الحواريين ما ظهر أنه خروج عن الإيمان ، وذلك في قولهم الذي يظهر فيه الشكّ في صِدق رسولهم عيسى كلمة الله الذي خاطبوه دون توقير أو احترام باسمه مجرداً عن الرسالة . ولكن عيسى عليه السلام كان حريصاً عليهم بحِلم وخُلق الأنبياء ولم يكرههم أو يجبرهم على الإسلام -كما يصدر من الذين يدَّعون الحكم بالإسلام- فعدم إيمانهم برسولهم عيسى يخرجهم من الدين رغم إيمانهم بالله سبحانه . فطلب عيسى عليه السلام من ربه ما سألوه حتى تطمئن قلوبهم ويوصلهم إلى درجة اليقين ، التي يمكن أن يكونوا بها قدوة لغيرهم وأهلاً للخلافة بالمحبّة والسلام . فرجعوا إليه حباً لا خوفاً . قال تعالى ﴿ . . . وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .﴾[2] . وقد يكون في قول عيسى عليه السلام فيما جاء من عند الله ﴿ . . . وَآخِرِنَا . . .﴾ ما يدل على ظهوره عليه السلام في آخر الزمان . ويؤيد ذلك أنه يخاطب الناس

---

(١) سورة المائدة : ١١٤ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٥ .

كهلاً كما خاطبهم في المهد ، فما بلغ الكهولة حين رفعه الله إليه بل كان في بداية الثلاثينات من عمره الكريم .

والرسل عليهم السلام لسماحة أخلاقهم لا يتعاملون مع من أُرسِلوا إليهم بالشريعة فحسب ، بل بالعفو والحِلم والإحسان وعظيم الأخلاق ، وإلا لكان الحواريون في عِداد الهالكين . فالله سبحانه يبعث رسله بصالح الأخلاق وبقانون الشرع الذي سماه الله حُكماً لأنه يتحاكم إليه الناس ويحكم معاملاتهم المدنية والجنائية وأحوالهم الشخصية ، ويؤتي الله رسله مع ذلك علماً يتسامى فوق التعامل بالحقوق يتميز به الرسل عن من أُرسِلوا إليهم قال تعالى ﴿**وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** . . .﴾ . فالاحتكام إلى الشريعة هو الحدّ الأدنى من التعامل بالرسالة ، ليتساوى الجميع في التعامل بها للحفاظ على الحد الأدنى من الأخلاق ، وذلك بالحفاظ على الحقوق المدنية والجنائية والشخصية ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1] . ويُعرف الأخيار من الناس بالسمو فوق المطالبة بالحقوق الشرعية ويقولون «**حسبك من البخل ألا تبقي من حقك شيئاً**» . فترى

---

(١) سورة المائدة : ٤٥ .

فيهم ﴿ . . . **الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1] .

قد تظهر على أيدي السحرة أفعال تبدو للناس أنها خرق للعادة ، ولكنهم لا يظهرونها بقصد خلق المجتمع الفاضل ؛ بل لدعوة الناس لتبجيلهم ، وتقديرهم ، وتعظيمهم ، وللسيطرة على عقولهم كيفما كان سلوكهم ، وهذا هو الانحراف عن القصد في خلق المجتمع الفاضل الذي من أجله بعث الله الرسل . فما كان مصلحاً أبداً من يدعو الناس إلى نفسه ليجلّوه ويتخذوه إماماً ليتسلط عليهم ، ولا الذي يطلب أجراً على علم يبديه . فكلّ المصلحين والرسل لم يطلبوا أجراً مادياً من الذين خاطبوهم بما يصلح أحوال الناس من العلم النافع ﴿ . . . **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**﴾[2] ولم يطلبوا سلطة عليهم ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾ . والسحر أيضاً لا توجد فيه الحقيقة المطلوبة وصاحبه لا يدعو إلى صالح الأخلاق قال تعالى ﴿ . . . **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ** . . .﴾[3] فهو مصحوب بالإرهاب الفكري والاستكبار وبما يعود بالمنفعة الشخصية من إظهاره .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٢) سورة الأنعام : ٩٠ .

(٣) سورة الأعراف : ١١٦ .

والآيات المعجزات التي كانت مؤيدة لدعوة الرسل عليهم السلام قد امتنعت ببعثة خاتم الأنبياء محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . قال تعالى ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** . . .﴾[1] فدعوة الناس بإظهار الآيات ليست كدعوتهم بالبلاغ ، لأنّ في البلاغ ثبات القلب واطمئنان الإنسان بما يتلقاه من حُسن القول والتنوير على حُسن السلوك والمعاملة ، وليعلم أنه الخليفة في هذه الأرض لإعمارها . أما إظهار الآيات فقد يقول من يراها ﴿ . . . **إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا** . .﴾[2] ؛ كما أنّ الدعوة بالآيات قد يكون في باطنها نوع من التخويف لوجود الانبهار عند الرائي أو الهيبة أو الخوف من الذي تصدر منه الآية . وقد يظهر الدجال في آخر الزمان بدعواه بالآيات الخوارق ؛ فيضلّ بها أكثر الناس الذين لم يفطنوا إلى أنّ الإيمان بالآيات المعجزات لم يكن منهجاً للرسالة الخاتمة . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال**»[3] . وقد وضّح النبي محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله للناس لماذا كانت بعثته ، حيث قال وهو أصدق

---

(١) سورة الأسراء : ٥٩ .

(٢) سورة الحجر : ١٥ .

(٣) ابن ماجة .

القائلين «**إنما بُعِثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1] فكلما يوجد مخالفاً لهذا النص في الموروث الديني لا عبرة به بل هو من المنكرات . **فكلّ علم لا يدعو إلى صالح الأخلاق إنما هو فتنة مهما زيّنه صاحبه بما يلفت الأنظار بغير المألوف** . والمخرَج من فتنة الدجال هو اتباع النهج المحمدي ، وأعني بذلك ألا تكون الآيات الخوارق أو إظهارها سبباً لسماع كلّ ما يقوله من يأتي بها ثم اتباعه . والذي يرهن عقله لتصديق من يُظهِر الآيات فلا عاصم له من الضلال ، لأنّ الذي يأتي بالآية فكلامه ليس عن الآية نفسها بل إلى ما يدعو إليه ، فإن لم يكن ما يدعو إليه هو صالح الأخلاق فقد ضلّ من اتبعه لأجل إظهار تلك الآية . لذلك كان النهج المحمدي هو احترام العقل بالمخاطبة لا الركون إلى الظواهر والآيات ، فلم يستجب للذين قالوا ﴿ . . . **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**﴾[2] فالذين ينظرون إلى إظهار الآيات تنقصهم العقول النيِّرة التي تحترم البلاغ المبين . فالذي يطلب إظهار الآية قد يكون من المكذبين حتى في ظهورها ويقول ﴿ . . . **إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا** . . .﴾ لذلك لم تقم الرسالة الخاتمة بالاعتماد على إظهار الآيات والدعوة بها ، قال تعالى ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** . . .﴾ .

---

(١) أحمد .

(٢) سورة الأنبياء : ٥ .

الإرهاب الفكري باسم العِلم

في سياق ما ذكرناه عن سِحر عيون الناس ، يمكن الإشارة إلى النقاش المتواصل والخلاف المتأجج حتى يومنا هذا عن حقيقة صعود الإنسان إلى القمر!! فمن يصدّق الذين قاموا بذلك الفعل فسوف يقبل منهم كلّ ما يقولون ، لأنّهم قد صاروا في نظره واعتقاده أصحاب العِلم والتصريف في الكون . وهذا هو الإرهاب الفكري الذي يجعل الإنسان منحازاً لما يقولون ، وينبري للدفاع الأعمى عن أباطيلهم دون تدبر ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ**﴾[1] . لأنّ من صدّقهم استند على خبر عن حادثة يرى كثيرون أنه لم يقم عليها دليل قاطع إلى يومنا هذا ، رغم كل التقنيات المزعومة في مجال الفضاء والصور المعدّلة . فصارت محلاً للتشكيك حتى من أندادهم في هذا المجال لنصف قرن من الزمان . وهذا كفيل بردّها واستبعادها عن الحقيقة ، والحذر الشديد والتثبت في كلّ ما يصدر عن من قاموا بذلك . وهي ليست ببعيدة عن قوله تعالى ﴿ . . . **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا**

---

(١) سورة الحج : ٣ .

بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1] . وهذه الآية لا تنحصر في سحرة فرعون وإلا لصار القرآنً غير صالح لكلّ زمان . ومن صدّقهم في ذلك سيصدّقهم بأنّ الشمس ثابتة ، وهنا عليه أن ينتبه إلى أنه بهذه الحالة سيكذّب الله تعالى في قوله ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي . . .**﴾[2] .

إنّ عدم الخوض في المسكوت عنه فيما يتعلق بالإرهاب العلمي ، أي الخضوع اليوم لسطوة كلّ ما يسمى علماً ، أمر يجعل الإنسان مقلداً مثل ببغاء ، يردد ما يرغبون فيما يتعلق بما وصل إليه العلم الحديث ، وربما لا يشكّ للحظة أنّ التزوير قد يطال العلوم أيضا وأهلها ، فإذا كان الله سبحانه يقول إنّ الأرض مسطحة ﴿**وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾[3] ولها أطراف ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . .**﴾[4] وهم يقولون إنها كرة وقال تعالى ﴿**وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا . . .**﴾[5] وقال تعالى ﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا . . .**﴾[6]

---

(١) سورة الأعراف : ١١٦ .

(٢) سورة يس : ٣٨ .

(٣) سورة الغاشية : ٢٠ .

(٤) سورة الرعد : ٤١ .

(٥) سورة الذاريات : ٤٨ .

(٦) سورة الحجر : ١٩ .

وقال تعالى ﴿أَمَّن **جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا** . . .﴾[1] وهم يقولون إنها تدور بسرعة عالية والشمس ثابتة . .! وثبات الأرض جاءت به الديانات وأصحاب العلوم من الأقوام السابقين الذين كانوا أشدّ منّا قوة وعمروا الأرض أكثر مما عمرناها ، كما تشير آيات القرآن صراحة قال تعالى ﴿ . . . **الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا** . . .﴾[2] ، فالمُسلِم اليوم في خيار بين أن يصدِّق ما ورد في القرآن أو ما يتم ترديده ليل نهار في المحطات التلفزية والمعاهد العلمية والجامعات . وبالطبع فإنّ الإصرار على مقولات معينة في العِلم على أساس صحتها المطلقة يعدّ أيضاً نوعاً من الإرهاب الفكري والإجبار الذي ترفضه الديانات ، فعلى الأقل من المفروض ترك الحرية للإنسان للقبول أو الرفض أو النقاش حول هذه المسائل دون إقصاء . فصدِّق من شئت أن تصدِّق ، ما قال الله أو ما جاءوا به ﴿ . . . **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** . . .﴾[3] .

ولكنّي لا أرى ما يفيد سموّ الأخلاق وإحسان التعامل على سبيل المثال فيما جاءوا به وبدأوه بأكبر كذبة في دعوى

---

(١) سورة النمل : ٦١ .

(٢) سورة الروم : ٩ .

(٣) سورة الكهف : ٢٩ .

صعودهم إلى القمر . وفيه انحراف عن القصد إلى خلق مجتمع فاضل خال من الكذب ، يسعد أفراده بالحب والسلام والاستعداد للحياة الباقية التي عليها المدار . فأين أصحاب هذه الكذبة البلقاء بصعودهم إلى القمر من أهل اليقين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ ومن الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم؟ والذين يبيتون لربهم سجّداً وقياماً؟ و﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴾[1] فما المقصود من العِلم النافع إلا الدعوة لخلق المجتمع الفاضل الذي تسود فيه مكارم الأخلاق ، ومعرفة الخالق ومعرفة النفس ، لأنّ من عرف نفسه عرف ربّه . ومحال أن يكون هناك عِلم يقصد به سعادة الإنسان وخلق مجتمع الحبّ والسلام وصاحِب ذلك العِلم يبدأ الإنسانية بأكبر كذبة كونية لا يستحي من إفشائها!! وحتى لو فرضنا صحّتها فما هي الفائدة المرجوة منها لهذه الأرض لخلق مجتمع الحبّ والسلام؟ ليس في ادعاء هذا الأمر إلا إظهار القوة للاستعلاء على بقية الأمم وهو الإرهاب الفكري الكوني . فما الفائدة التي جنتها الإنسانية من صناعة القنبلة الذرية؟ لذلك أرى أنّه لا يوجد خير في عِلم للإنسانية إلا إذا كان فيه وجود مصلحة للإنسان البسيط ، وللفقراء والمساكين ، وتكون فيه رفعة مستوى الحياة من الفقر الذي يسود أكثر الأمم . فالعِلم

---

(١) سورة الذاريات : ١٧ .

النافع هو المنهج لزرع الحب والسلام بين الناس ونبذ الطبقية والعنصرية .

من الواضح أن ما يتبع تلك الكذبة الكبرى استحقاقات كثيرة ، إذ يريدون إقناع البشر بأنّ الكون شاسع يزدحم بالمجرّات والكواكب ، وأنّ الأرض لا تكاد تُرى ، ولا قيمة لها ، وأنّ الديانات فكر بشري بائس وناقص ، ولا مكان لها في عالم اليوم . بينما هذه الأرض جعلها الله مقراً لهذا الإنسان الخليفة الذي كرّمه الله وجعل عليها النشأة الأخرى قال تعالى ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[1] فهي الأهم في هذا الوجود ، وفيها أهمّ ما خلق الله سبحانه وهو الإنسان الذي كرّمه الله ، وفضّله ونفخ فيه من روحه وجعله خليفة فيها ، فهي دار القرار في النشأة الأخرى ليكون الناس ﴿ . . . **خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ** . . .﴾ . ويريدون أن يتحوّل تفكير الإنسان إلى ما يزعمون من وجود كواكب لا يمكن حصرها ومنها ما يقولون إنّ بُعده ملايين السنين الضوئية ، ولا يملكون دليلاً قطعياً على ما يقولون ولا على حسابهم عن السنة الضوئية هذه ، ويوهمون الناس بإمكانية أن يقوم الإنسان بالسكن في كوكب المريخ مثلاً ، وغير ذلك مما يجعل من ضعاف العقول ببغاوات تردد ما يقولون

---

(١) سورة طه : ٥٥ .

وليس قصدهم في آخر الأمر إنشاء المجتمع الفاضل ولا الحياة التي يتمناها الإنسان من السعادة على هذه الأرض ، بل قصدهم السيطرة الفكرية على عقول الناس وإنكار الديانات وما جاءت به الرسل ثم إنكار الخالق ، وهو أمر لا يفيد بشيء .

قال تعالى ﴿ . . . **وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾[1] .

كان الجزاء والعقاب على البغي من بني اسرائيل هو حرمانهم من الشحوم الحيوانية . وقد جاء في الحديث «**لم يستشف الناس بأفضل من السمن**»[2] فمن أفضل الغذاء بل الدواء هو السمن والشحوم الحيوانية . ولننظر ماذا كان من الإرهاب الفكري باسم العِلم الذي طغى على الناس حتى صدّقوا من قال إنّ العِلم الحديث يرفض هذا العِلم الإلهي ، وإنّ الدهون هي التي تفتك بالإنسان وتسبّب من المرض ما يعِز شفاؤه . ووضع العِلم الحديث في كفّة والعِلم الإلهي في كفة ، ولِقوة الإرهاب بمسمى العِلم رجّح الناس كفّة العِلم الحديث على العِلم الإلهي سنين عدداً ، حتى اتضح لهم أخيراً أنّ الحق هو ما جاء من عند الله ، وأنّ الدهون الحيوانية من أفضل الغذاء

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٦ .

(٢) ابن السني .

بل الدواء كذلك!! فصدّقوا ربهم ورجعوا إليه وثبت للناس الإرهاب باسم العِلم الذي ضلّ به الكثيرون . ورغم ذلك تجد أنّ بعضاً من الناس لا يزال يثق بما يقال له إنّه عِلم حديث واكتشاف مفيد ، دون أخذ الحيطة والحذر ، ولا يعتبر بما حصل من هذا الخطأ ، وربما يظنه خطأ محدوداً ولا ينبغي أن يكون سبباً لرفض ما جاءوا به .

ففرية أنّ الدهون الحيوانية تسبب أمراضاً يعز شفاؤها القصد منها إبعاد الناس عن الغذاء المفيد ، وعن العِلم الإلهي لتكثر فيهم العلل . وكلّ ما جاء مثلها من الإرهاب الفكري من كروية الأرض والصعود إلى القمر وثبات الشمس ثبت أنّه افتراءات كبرى ، وفيه تكذيب لله ورسوله ، لمخالفته لنصوص القرآن . والدجّال يبني مملكته على الكذب وتصديقه وعلى الإرهاب الفكري . فهو لا يريد للناس الخير في حياتهم الدنيوية والأخروية ، فيسعى للسيطرة على عقولهم بتزيين الباطل بأكاذيب قد يبنيها على خوارق باطلة ليصدِّقوا بها . وللناس الخيار في أن يصدِّقوا ما جاء من عند الله أو ما يخالفه مما يُسمّى بالعِلم الحديث .

الدعوة المحمّدية

تتجلى عظمة الرسالة المحمدية في أنّها جاءت بالبلاغ لرفعة الإنسان لا بإظهار الآيات الخارقة ، إنما لحفظ الإنسانية من الانحراف عن خلق مجتمع الحبّ والسلام ، المجتمع الذي ينسجم أفراده بالتكافل والحبّ ، ونظرة الموسر للفقير بالعطف ، وعدم استعلاء القوي على الضعيف ، ونبذ الاستكبار والتعالي على الناس ونبذ العنصرية المنتنة . فأُرسِل محمدٌ صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله رحمة للعالمين بالبلاغ المبين ليتمّم صالح الأخلاق التي جاء بها الرسل السابقون ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[1] ؛ لأنه القمة في ذلك حتى مدحه من خلقه سبحانه بقوله ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2] وأرسله بالبلاغ إلى الناس كافة ، لا ليقيم دولة بحدود جغرافية محدودة ، وبعثه في من قال فيهم سبحانه ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ**

(١) سورة النحل : ٦٤ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

كُفْرًا وَنِفَاقًا . . .﴾[1] ممن سبقهم من الأمم كعاد وثمود وقوم نوح ﴿ **. . . وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ . . .﴾**[2] وقال له سبحانه ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**[3] ولو لم يُرسِل الله سبحانه إليهم أعظم رسله لما آمن منهم أحد ، لاعوجاج سلوكهم ، وسوء أخلاقهم ، وقسوة قلوبهم ، وشركهم . هكذا أخلاق الأعراب كما وصفهم الله سبحانه في تفوقهم في الكفر والنفاق على عاد وثمود وقوم تُبّع ، فتعامل معهم رسول الله بما وصفه الله به من سموّ الأخلاق . فلم يدعُ الناس ويبلّغهم بقيم الدين ومكارم الأخلاق بإظهار الآيات والمعجزات ، رغم أنها كانت تصدر عنه أحياناً . فقد كان يشكو إليه البعير ، ويحنّ له الجذع ، ويسلِّم عليه الحجر ، ويسبّح الحصى بين يديه ، ويخاطبه الضبّ ، وينشق له القمر ، وتُردّ له الشمس . فمن عظمته صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله أنّ دعوته للناس لم تكن بالآيات رغم المقدرات الهائلة التي كانت عنده مما يبهر العقل ، وذلك حتى لا ينشغل الناس بما لديه من إصدار الأمور الخارقة ؛ وحتى لا

---

(١) سورة التوبة : ٩٧ .

(٢) سورة التوبة : ٩٧ .

(٣) سورة يس : ٦ – ٧ .

تكون الآيات هي الدلالات على صحّة المسار الأخلاقي الذي من أجله كانت الرسالات والتي خُتِمت بالرسالة المحمدية .

إنّ الدعوة بإظهار الآيات يصحبها نوع من التخويف قال تعالى ﴿ . . . **وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾[1] . كما أنّ الآيات يشهدها من حضرها في زمن الرسول ، ورسالة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله للناس كافة . **فنهج الرسول الخاتم صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو الأمان والضمان للإنسانية من الانحراف ، الذي قد يحدث ممن بإمكانه إظهار آية ولا يدعو إلى صالح الأخلاق . وهكذا يكون حال الدجّال الذي يسيطر على الناس بإظهار الخوارق** . فعظُم رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله عند الناس بتواضعه وعظيم أخلاقه ، وصار بذلك المثل الأعلى للإنسانية ، فمدحه الله سبحانه لعظيم أخلاقه ، وصلّى عليه هو وملائكته ، ويصلّي أيضاً على من يصلّي عليه لحبّه له .

جاءت الرسالة الخاتمة لرفعة الإنسان وخلق المجتمع الفاضل ، وهي تبيين لما سبق من الرسالات ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[2] فهي مؤيدة وليست معارضة لما سبق من

---

(١) سورة الإسراء : ٥٩ .

(٢) سورة النحل : ٦٤ .

الرسالات وللتقدم العِلمي والاكتشافات التي تؤدي إلى تطور هذه الحياة الدنيا وتسهيل المهام فيها ، بل توجب احترام أصحاب التقدم العِلمي من كل من يدعو لإصلاح المجتمع ، والاهتمام بالتطور والاختراع المادي الذي يفيد الحياة البشرية ، قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**»[1] ، على ألا يكون ذلك على حساب الثوابت من الأخلاق والسمو الروحي الذي هو مطلب الخالق سبحانه ممن استخلفه في الأرض . وألا يقصد به الطعن في عقائد الناس ليرفضوا ما جاء به الرسل من عند الله . فالاكتشافات العِلمية والتطور المادي مرتبط بتحسين هذه الحياة الدنيا ، فلا حاجة للناس أن يجنح به أصحابه لحرب المعتقدات والإيمان . فهو عِلم مادي ليس المقصود منه تحسين الأخلاق بل تسهيل وتحسين الأعمال في هذه الحياة .

أما الآيات الخارقة لغير الرسل فهي غير ممتنعة ، وتحدث للعباد الصالحين لأنّهم أصحاب المقام الأسنى الذي ليس فوقه مطلب . حتى أنّ الرسل باستثناء محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله يسألون الله أن يدخلهم في عباده الصالحين ، فهم «**على منابر من نور يغبطهم النبيون**»[2] والصالحون لا ينحصر

---

(١) مسلم .

(٢) الترمذي .

وجودهم في أمة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بل يوجدون في أمم كلّ الرسل . والدخول في الصالحين يكون بالرحمة التي هي محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، لأنّ الله قد أخذ العهد على كل الأنبياء بالإيمان بمحمد ، لأنه خاتم الأنبياء ومصدِّقٌ لكل الرسالات السابقة ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ . . .**﴾[1] وهو مبيّن كذلك للرسالات السابقة قال تعالى ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[2] قال تعالى عن سليمان عليه السلام ﴿ . . . **وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾[3] فتوسّل بمحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، لأنّ محمداً هو الرحمة التي كتبها رب العباد على نفسه ، قال تعالى ﴿ . . . **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ . . .**﴾[4] وقال تعالى ﴿ . . . **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ**

---

(١) سورة آل عمران : ٨١ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) سورة النمل : ١٩ .

(٤) سورة الأنعام : ٥٤ .

(٥) سورة الأعراف : ١٥٦ .

شَيْءٍ . . .﴾[٥] وبهذا فإنّ الرحمة تسع الغضب الإلهي - إن كان الغضب شيئاً - وهذا يشير إلى شفاعة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، وقد سبقت الرحمة الغضب الإلهي ففي الحديث القدسي «**رحمتي سبقت غضبي**»[١] والرسول هو الوسيلة بين الله وعباده ، قال تعالى ﴿ . . . **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾**[٢] فالعلاقة بين العباد والخالق لا تكون إلا بمن يجعله لهم الخالق للصّلة بينه وبينهم . ولا تكون العلاقة والصّلة إلا عن طريق رسله الذين جعلهم لهداية الخلق وتبيين كيفية التعامل . فالرسول هو الذي يتلقى من الله ما يريده لعباده ويرشد العباد إلى ذلك ، فهو بذلك الوسيلة التي لا غنى للعباد عنها . ومن يدّعي أنّ علاقته مع الله تكون مباشرة دون الرسول فقد ادعى النبوة ، درى بذلك أم لم يدر .

قال تعالى عن لوط عليه السلام ﴿**وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾**[٣] ويشير إلى دخوله في الرحمة المهداة أنه كان يأوي إلى ركن شديد ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾**[٤] وهي إشارة إلى محمد صلى الله وبارك

---

(١) البخاري .

(٢) سورة المائدة : ٣٥ .

(٣) سورة الأنبياء : ٧٥ .

(٤) سورة هود : ٨٠ .

عليه ووالديه وآله القائل «**رحم الله لوطاً فإنه كان يأوي إلى ركن شديد**»[1] وقال عن إبراهيم عليه السلام ﴿**رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[2] وقال عن يحيى عليه السلام ﴿ . . . **وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾[3] فالسيادة التي أثبتها الله سبحانه ليحيى عليه السلام لا تمتنع عن محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، ولا يجحد بها إلا كل لئيم مستكبر حُرِم من حبّ محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله فحُرِم الإيمان . وعن عيسى عليه السلام قال تعالى ﴿**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[4] وكلمة «كهلاً» تدل على ظهوره عليه السلام في آخر الزمان حين يقتل الدجّال ، لأنه لم يبلغ الكهولة حينما رفعه الله إليه فقد كان في أوائل الثلاثينات من عمره الكريم والكهولة تبدأ بعد أن يبلغ الإنسان أشُده وذلك بعد سن الأربعين قال تعالى ﴿ . . . **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** . . .﴾[5] ، فلابد له من أن يخاطب الناس وهو في سن الكهولة بصفته مهدياً ، فقد قال

---

(١) البخاري .

(٢) سورة الشعراء : ٨٣ .

(٣) سورة آل عمران : ٣٩ .

(٤) سورة آل عمران : ٤٦ .

(٥) سورة الأحقاف : ١٥ .

محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله « . . . **ولكن لا نبي بعدي**»[1] وقال تعالى عن محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** . . .﴾[2] فظهور عيسى عليه السلام آخر الزمان لا يكون إلا مهدياً من الصالحين منسوباً لمحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله يهدي بهديه ، وليؤمن به أهل الكتاب . وهو مقام أعلى مما كان عليه وهو نبي قبل أن يرفعه الله إليه ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ** . . .﴾ . وعن شعيب في خطابه لموسى عليهما السلام ﴿ . . . **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[3] وقال عن صاحب الحوت يونس عليه السلام ﴿**فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[4] فتمّ الاجتباء له بعد أن نبذه الحوت بالعراء بعد ذهابه عن قومه مغاضباً فألحقه الله سبحانه بالصالحين . وقال عن يوسف عليه السلام ﴿ . . . **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[5] .

والصالحون هم الذين يسعون لخلق المجتمعات الفاضلة

---

(١) أحمد بن حنبل .

(٢) سورة الأحزاب : ٤٠ .

(٣) سورة القصص : ٢٧ .

(٤) سورة القلم : ٥٠ .

(٥) سورة يوسف : ١٠١ .

بسلوكهم ، اقتداءً بمن بُعِث ليتمم صالح الأخلاق التي دعت إليها كلّ الرسل ، لا بخرق العادات وبما حباهم الله به من إمكانية الأفعال الخارقة لإظهار القدرة الإلهية في الكون ، إلا عند الاضطرار . أما ما يصدر من أصحاب السِحر كالذي يبدو للناس أنه خرق للعادة لا يكون عن اضطرار ، بل يكون بقصد التباهي والتعالي والسيطرة على العقول والسيادة على الناس والاستكبار ، وبما يعود على أصحاب السِحر بالمصلحة . فشتّان بين الأمرين .

والصالحون هم الذين ﴿ . . . **لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] . فهم ستار القدرة ، يُجري الله على أيديهم ما يشاء قال تعالى : ﴿ . . . **يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ** . . . ﴾[2] . وهم الذين بهم يتم إصلاح المجتمع ، وتنوير الناس وتذكيرهم بما جاءت به الرسل من كيفية إحسان التعامل ، وتبصيرهم بأنّ نهاية الحياة الدنيا أمر حتمي ، وعمر الإنسان فيها قصير ونهايته أمر يقيني . فعليه أن يعيش حياته للخلافة في هذه الدنيا فيما يوفر له السعادة في التعامل مع الناس ، بالخُلق الحسن والحب والإيثار ، وهذا هو العمل الذي يفيده في هذه الدنيا وفي الآخرة لقول النبي صلى الله وبارك

---

(١) سورة القصص : ٨٣ .

(٢) سورة التوبة : ١٤ .

عليه ووالديه وآله «**أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً**»[1] وأعظم المجالس وأعلاها في الآخرة هو المجلس المحمدي العظيم . والحياة الدنيا ما هي إلا معبر للحياة الباقية التي عليها المدار والبقاء الدائم . قال تعالى ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2] وقال تعالى ﴿ . . . **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[3] أي أنها تشمل الحياتين . فالعاقل هو الذي يستثمر هذه الحياة بحُسن الخُلق والتودد إلى الناس فيفوز هنا وهناك . فقد جاء في الحديث «**التودد إلى الناس نصف العقل**»[4] . فالتعامل بالأخلاق الحسنة هو مقصد الرسالة الخاتمة وما سبقها مما جاء به الرسل السابقون عليهم السلام ، وهو احترام الذات ، وعليه يسير الصالحون ويُقتدى بهم لإحسان التعامل . فليست الآيات هي التي

---

(١) أحمد والترمزي .

(٢) سورة يونس : ٢٤ .

(٣) سورة العنكبوت : ٦٤ .

(٤) البيهقي .

بإظهارها يقوم مجتمع المحبّة والسلام ، ولا تستقيم الحياة إلا باتباع صاحب الرسالة الخاتِمة صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . ولم تكن بعثته إلا كما وضّحها في قوله ، وهو أصدق القائلين «**إنما بُعِثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1] . فاتخاذ أي نهج غير هذا لإصلاح المجتمع ، أو لخلق مجتمع فاضل بإظهار الخوارق والآيات ، إنما هو من قبيل منهج الدجّال والانحراف عما جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله والرسل السابقون .

لا يعني ذلك إنكار التطور العِلمي في المسائل التي تفيد الإنسانية في تسهيل الحياة ، ولا يجوز ازدراؤها وتحقير من يقوم بذلك من العلماء . ولا ينبغي أن يكون هناك صدام بين العلماء في تجميل صورة الحياة الدنيا . فعلى أصحاب الدعوة إلى خلق المجتمع الفاضل - الذي هو ما جاءت به الرسالات- احترام الآخر وتقدير من يأتي باختراع يفيد الناس في حياتهم ، ولو كان كافراً لا يؤمن بالله واليوم الآخر . وهكذا كان تعامل الرسل وإلا لما آمن بهم من كانوا مشركين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . فالتعالي على الناس باسم الدين ، وبما جاءت به الرسالة الخاتِمة ، أو فرض السيطرة عليهم ، مناف تماماً للدين ، ولما جاء به نبي الرحمة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه

---

(١) مسند أحمد .

وآله وكل الرسل السابقين . فالدين حُسن الخُلق وهو احترام الآخر واحترام كلّ من يجيء بعِلم يفيد البشرية في تحسين حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، ما لم يكن فيه ما يصادم الثوابت من الأخلاق التي هي القصد من الرسالات ، قال تعالى ﴿**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** . . .﴾[1] . كما لا ينبغي لأصحاب الاكتشافات العِلمية التعالي على الناس بما جاءوا به . فإذا لم يكن للأنبياء وأصحاب الرسالات الحقّ في التعالي على الناس وإجبارهم على ما جاءوا به من عند الله ، فليس لأصحاب هذه الاكتشافات العِلمية الحق في السيادة على الناس والسيطرة على المجتمع . وعليهم أن يعلموا أنّ كل علومهم هذه لا تورث الخلود ، فلا بد من الموت مهما كانت عظمة الاختراعات والتقدم العِلمي . والتقدم العِلمي في التقنية وما يوصِل إليه من عظيم التطور أمر مرهون بهذه الحياة الفانية وتسهيل وتحسين الأعمال لا الأخلاق . فالعاقل هو من يحترم المخترعين ويستفيد من الذي جاءوا به من عظيم العِلم المادي ؛ ولا ينسى نصيبه من الدنيا ؛ ولا يشغله ذلك عن الذي من أجله كانت هذه الحياة معبراً ، ألا وهو الحياة الخالدة حيث السعادة الدائمة حين يلقى الإنسان ربه . ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ**

---

(١) سورة الشعراء : ١٨٣ .

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[1] . وعلى المخترعين والعلماء أن يكونوا قدوة للآخرين في التواضع وتقدير الآخر ، والنظر إلى الناس بعين الحب ، والإيثار ، واحترام عقائدهم ، لا التعالي والاستكبار .

(١) سورة الانشقاق : ٦ .

الحبّ مكمن السعادة

من الناس من لا يؤمن بالله سبحانه ، ورغم ذلك لا تتعطل سنن الحياة في مسعاه بسبب عدم إيمانه بالله ، وقد ينجح في اتخاذ الأسباب المعيشية بما لا يتوفر لصاحب الإيمان ﴿**كُلاً نُّمِدُّ هَـؤُلاَءِ وَهَـؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ . ورزقُ الله الكريم لعباده لا يرتبط بالإيمان به تعالى ، وإلا لما أعطى من يكفر به مثقال حبّة من خردل . أما السعادة وراحة البال فلا ترتبط بما يملكه الإنسان من مال وسلطان ومسكن والأسباب التي تُوصِل إليها ، وهي مطلب أكثر الناس . فمن الناس من يفسده رغد العيش قال تعالى ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ . . .**﴾[1] فصاحب الإيمان بالله وإن تعسّر عليه الحال ، أو لم ينجح في اتخاذ الأسباب المعيشية لوفرة الحياة ، ففي قلبه رجاء لما بعد الموت ، وإن لم يكن ذاكراً لحدوثه أثناء تصرفاته وعمله اليومي . ولكنّه يرجو عند الله في الآخرة ما افتقده في الدنيا . وهذا الرجاء يعطيه قسطاً من السعادة ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يكتئب من ضيق ذات

---

(١) سورة الشورى : ٢٧ .

اليد ، بل يسعد بما يرجوه في الآخرة ، فيراعي في تعامله حُسن السلوك . ورغم هذا قد لا يذكر الموت في حياته اليومية أثناء تأدية أعماله وإن كانت صالحة يرجو أن تكون في ميزان حسناته في الآخرة .

إنّ الموت هو المؤثر الأكبر في السلوك الإنساني والتصرفات ، لوجود الحبّ في الذات الإنسانية ، لأنّ الحبّ هو الأصل في الوجود ؛ ويتضح في حبّ البقاء . فكلّ إنسان على يقين تام أنّ بقاءه في هذه الحياة الفانية محدود . لذلك يوجد عنده دافع قوي لإسعاد نفسه في هذا العمر المحدود قبل الموت ، ولا تتوفر السعادة إلا في الحبّ . فمن الناس من يحصر سعادة نفسه في هذه الحياة . ولقصر نظره وضيق أفقه ينصرف حبه في جمع المال والسلطان والسيطرة على خلق الله واتباع الشهوات ، غافلاً عن نهايته في هذه الحياة مهما بلغ من العمر ، وغافلاً عن الذي يسعده في الدار الآخرة ذات الخلود . قال تعالى ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ**﴾[1] فالكرم الإلهي لا ينحصر على المتقين والمؤمنين باليوم الآخر فهو الواسع الكريم سبحانه . ومنهم من ينظر إلى إسعاد نفسه في هذه الدنيا وفي الحياة الباقية ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم**

(١) سورة هود : ١٥ .

مَّشْكُورًا﴾[1] . وأجهل الناس من ينكر الحياة الآخرة . لأنّه لو لم ينكرها لا يخسر شيئاً حتى وإن لم تكن . أما عدم إيمانه بها فهو مصيبته الكبرى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] ويجد نفسه من المنكرين حينها ولم يعمل لها من عُمرِه في الدنيا ما يرجوه من السعادة التي هي مطلب كلّ ذي عقل راجح .

كثير من الناس مَن تجده مشغولاً بالاكتشافات العلمية في الطبّ والفلك والفيزياء والتقنية ، وهو ليس من أهل هذه العلوم . ويقحم نفسه في الدفاع عنها ليقول إنّ التقدم العِلمي فاق ما جاءت به الرسل ، وإنّ دعوة الناس إلى ما جاءت به الرسل تحجير على العقل ومانع للتقدم العِلمي البشري ، ويدعو إلى نبذ الدين من حياة الناس ، وإغفال ما جاءت به الرسل . ولو سئل ماذا يجني من ذلك لأُسقِط في يده ، لأنّ ذلك لا يفيده في حياته الدنيا ، ولا في ما يرجوه في اليوم الآخر ، كما أنّ الذي يدافع عنه ليس هو العِلم الذي يستفاد منه في خلق مجتمع فاضل ينعم أفراده بالسلام والتكافل والإيثار . وليس هناك تصادم بين الاكتشافات العِلمية لتحسين الأداء في حياة الإنسان ، وبين القوانين أي الشريعة التي تنظم المعاملة بين

---

(١) سورة الإسراء : ١٩ .

(٢) سورة المطففين : ٦ .

الناس لحفظ الحقوق والمساواة بينهم في الإنسانية ، فلا فضل لجنس على آخر . فما جاء به الرسل هو احترام الإنسان بوضع قوانين الشريعة لإحسان التعامل بين الناس لإسعادهم في الدنيا والآخرة . والتطور العِلمي في العلوم المادية لم تحرِّمه الأديان بل تحترم العقل الإنساني الذي يتفكر في الخلق ويبدع ويفيد الناس في حياتهم . فالذي يريد أن يكتفي بالعِلم المادي رافضاً للدين الذي جاء به الرسل ، هو الذي يرى العِلم محصوراً في هذه الاكتشافات التي وصل إليها الإنسان في الفلك والطبّ والتقنية ، وأنّ الدين لا شأن له في تقدم حياة الإنسان . وهو بذلك يحصر نفسه في هذه الحياة الدنيا وزينتها ، ويغفل عن الربط الأخلاقي للإنسانية ، وسريان الحبّ في العالم ؛ بينما لا يوجد تصادم بين الاكتشافات العِلمية المادية والدعوة إلى سيادة الأخلاق التي يدعو إليها الدين . والذي لا يرى للدين شأناً في تقدم حياة الإنسان هو الذي يرفض الأخلاق . لأنّ الدين أتى بالأخلاق ودعوة الناس إليها ، والتي لا يكون الحبّ إلا لأهلها فلا حبّ لمن لا أخلاق له . «**إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقَاً**»[1] كما قال خاتم الأنبياء صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . فلا سعادة للإنسان حقيقة إلا في الحبّ ، فإن لم يعرفه تعِس في حياته ، فيدركه الموت ويجد

(١) أحمد .

أعماله في الآخرة ﴿ . . . **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** . . .﴾[1] فـ«**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**»[2] .

السبب في كل التصرفات هو الحبّ ، ولا تعجل بنظرك إلى الكراهية فتضعها في التضادّ للحبّ فقد يزول الالتباس بالتدبر . فالحبّ أمر كلي جامع لأنّه السبب في الوجود والخلق ، إذ لا يكون شيء والله له كاره . وهو المُريد سبحانه ولا يخرج شيء عن إرادته ، لأنّ خروج شيء عن إرادته يعني العجز ، تعالى الله عن ذلك . قال تعالى ﴿ . . . **وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ** . . .﴾[3] لذلك لم يخرجوا . وبما أنّ الحبّ هو السبب في الوجود والخلق كما ذكرنا فهو موجود في هذا الإنسان الذي جعله الله خليفة في هذه الأرض لما نفخ فيه من روحه ، ويسعى الإنسان لإسعاد نفسه بهذا الحبّ في تعامله في هذه الحياة مع من يحب وما يحب ، لأنه وجِد به وإن كان لا يؤمن بالله سبحانه . ولننظر إلى تشعبات هذا الأمر الكلي في هذه الحياة الفانية .

فمن هذه التشعبات ما هو أقرب إلى الشمول وهو حبّ الذات أو حبّ البقاء . وهو حبّ لا يوجد فيه نوع من

---

(١) سورة النور : ٣٩ .

(٢) الترمذي .

(٣) سورة التوبة : ٤٦ .

الإحساس بالحب ، وذلك لانحصاره في الذات بصورة تطغى على الإحساس بالحبّ ، لغلبة الشعور بالكلية أو الواحدية وعدم التفرقة ؛ ولذلك ينعدم الشعور أو الإحساس بالحبّ . ويدخل في هذا حبّ الأبناء والوالدين والإخوة والزوج . ولو سئل الإنسان هل يحبّ أمّه لأجاب دون تردد بالإيجاب . ولو سئل هل يحسّ بهذا الحبّ؟ فالإجابة الصحيحة هي النفي إلا أن يكون مكابراً ، ولكنه حقيقة يحبّها ويتضح له ذلك إذا أصابها مرض مثلاً فإنه لا يدّخِر وسعاً في علاجها ، ولو كلفه ذلك حياته ، لأنّ حبه لها هو من حب البقاء ، أو حبّ الذات ، أو حب الكلية الذي لا إحساس به ولا يظهر إلا عند الشعور بفقده . أما الإحساس بالحبّ فيظهر عند محاولة جذب إنسانٍ لآخر إلى كليته أو ذاته أو واحديته . فإذا تم الانجذاب دخل ذلك المحبوب في الكلية أو الواحدية ، فينتفي الشعور أو الإحساس بالحبّ ولا يظهر بعد ذلك إلا عند الشعور بفقد المحبوب . فكل ما تراه معارضاً لهذا الحب فهو المكروه والمبغوض ، فالسبب فيه إذاً هو الحبّ فليست الكراهية سوى عارض يمكن إزالته .

ومنها حب التملك للمحسوس كالمال والذهب والفضة والأنعام والحرث ، وهذا يدخل في حب الذات كذلك ، للإعانة على البقاء وتسهيل الحياة الدنيا . فالإحساس بحبه لا يكون إلا عند فقده . والتملك للمحسوس تكثر فيه الحركة

بالكسب والفقد المتكرر ، ولذلك هو الذي يسيطر على عقول الكثيرين ويشغلهم بالحرص على اقتناء المحسوس واكتنازه عن الالتفات إلى ما هو أولى وهو حب الذات ، الذي يراعي فيه المرء سعادته في الدنيا والآخرة .

ونوع آخر من الحبّ هو حبّ المعنى أي اللا محسوس ، أو الموجود العدمي . وهذا قد يتجسّد في إنسان كالعلم مثلاً . فقد تجد في أحد الناس من العِلم ما يجعله محبوباً لديك لدرجة عالية . فالحبّ هنا لوعاء العِلم هذا ، لما يفيض به على المتلقي ، وقد يبلغ درجة عظيمة جداً . وبالتبصر والتدقيق تجده تابعاً لحب الذات ، إذ إنّه بالعِلم تتسع للإنسان أبواب الحياة ولذة البقاء في هذه الدار والدار الآخرة . فالعِلم لا يُرى مجرداً عن المادة كما أنّ الحق لا يُرى مجرداً عن المادة . وبالحق قامت السماوات والأرض وما بينهما قال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ** . . .﴾[1] . وكل اسم من أسماء الله له دوره في الحياة ، وما الحياة إلا مظاهر هذه الأسماء ، كالرزاق للرزق والحفيظ للحفظ واللطيف للطف والمميت للموت ، أما باسمه الحق كان خلق السماوات والأرض وما بينهما . والحق لا ينقسم . وحب العالِم إنما هو لعِلمه لا لذاته فالمحبوب هو العِلم المتجسد في العالِم ، بغض

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

النظر عن شكله في الجمال أو القبح .

ومن ذلك أيضاً حب الجَمال للمبصِر ، فإن كان الجمال في نفس من الأنفس يقع الحب لتلك النفس مصحوباً بإحساس غالب للقرب والتلذذ والاستمتاع بهذا القُرب ، بل محاولة جلب وجذب هذا المحبوب وضمه إلى الذات حتى تنتفي الغيرية ، وهذا يتضح في حب الإنسان لمن يُريد الاقتران بها مثلاً . وهذا النوع من الحب قد يكون سبباً في إقصاء الآخر لوجود التنافس على القُرب من النفس الجميلة . فنجد أنّ الإقصاء حقيقة سببه الحب . فإذا تمّ الجذب والانضمام يتلاشى الإحساس والشعور بالحب لأنّه أصبح حباً للذات لانتفاء الغيرية . وكثير من الناس يظن عدم وجود الحب بعد استمرارية الحياة الزوجية لعدم إحساسه به ، ولا يدري أنه أصبح حباً ذاتياً . وذلك مما يكدر العلاقة الزوجية لمن لا يعلم ذلك ، ويظن فقدان الحب لعدم الشعور به ولا يدرِك أنّ هذا الحب قد أصبح حباً للذات لا يحس به إلا عند الفقد . فالحب إن كان فيما يتوهم أنّه حب لغير الذات صحبه الإحساس والشعور به كحب الإنسان لمن يُريد الاقتران بها كما ذكرنا آنفاً . أما حب الذات فلا إحساس فيه ولا شعور به . فلو سئلت هل تحب نفسك؟ فالإجابة بالإيجاب ولكن هل تحس بهذا الحب؟ فالإجابة قطعاً بالنفي **فالعضو الذي تحس به من جسمك هو العضو المريض** .

بين الخوف والحزن

الإحساس بحبّ الذات يظهر عند علامة بدء المفارقة من الذات أو الكلية أو الواحدية ، كبتر عضو من الأعضاء أو مرض مفضٍ إلى الموت ، وذلك يعني الخوف . وبهذا المعنى يكون الخوف هو ما يوقظ الشعور والإحساس بحبّ الجزء الذي سيصيبه الأذى من الذات . فما الخوف إلا سبب لإظهار حبّ الذات . فإيقاظ الشعور والإحساس بحب الذات يتعلق بأمر مؤذ سيحدث مستقبلاً ؛ أما الحزن فيتعلق بأمر مضى ، أو أمر لم يتم إنجازه في وقته رغم ما بذل من عمل ؛ والحزن هنا يصبح حسرة إذا تعلق بأمر استحال تنفيذه رغم ما بُذِل من عمل . فالخوف متعلق بأمر يصدر من خارج الذات أما الحزن فيكون سببه أمراً تعلق بفعل الذات أو حصل للذات أو فعل اشتركت فيه الذات سلباً أو إيجاباً . فالخوف في الوجود أصله الحب ، وهو الشعور والإحساس بقرب فقد ما يحبه الإنسان لذاته ، أو قُرب تغيير حاله إلى الأسوأ . وبهذا يكون الخوف هو تحريك للإحساس والشعور بحب الذات ، فلم يخرج عن دائرة الحب . فالحب يحثّ الإنسان إلى بقاء الأمر على ما هو عليه أو إلى الأحسن . وكل ذلك يتعلق بحب الذات . أما إذا كان قرب الفقد أو تغيير

الحال إلى الأسوأ لغير الذات ، أو ما يتوهم أنه الغير ، فلا يكون هناك خوف وذلك لعدم المناسبة . ولقد ذكرنا أنّ حب الذات يضم الآباء والأبناء والإخوة والزوج . والخوف الأكبر هو الشعور بقرب فقد النفس أو الذات ، ويأتي بعده الشعور بقرب فقد جزء من الذات . والأقل درجة هو الإحساس أو الشعور بفقد مكانة أو ملك أو مال . وإذا كان الأمر في أحد هذه الأمور ويتعلق بغير الذات ، فلن يصيب الإنسان منه خوف على الذات ، لكن قد يكون منه بعض الخوف أو لا يكون على من يكون توهُّم الغيرية فيه ضعيفاً لقرابة رحم مثلاً . أما الحزن فلا يكون على ما يتوقع حدوثه بالنسبة للذات أو للغير المتوهَّم ؛ بل يكون على ما وقع أو ما لم يتم حدوثه في وقته رغم بذل الجهد . والأمر الذي لم يتم حدوثه رغم بذل الجهد في وقته ، أو الذي تم حدوثه بعكس ما أُريد له من تدبير ، هو سبب الحسرة التي توجع القلب ، وهي نوع من العذاب فوق الحزن قال تعالى ﴿ . . . **لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ** . . . ﴾[1] . فالخوف يتعلق بما يتوقع حدوثه ، أما الحزن فلا يكون إلا على ما حدث ، والحسرة تكون على ما حدث بعكس ما أُريد له .

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٦ .

القضاء المطلق والمقيَّد

المصور البديع في أحديته تبارك وظهر بهذا الوجود في غاية الجمال والكمال ، إذ يستحيل أن يكون هناك أجمل وأكمل من هذا الظاهر الذي تبارك في هذا التجلي . والحجاب عن رؤية الظاهر ممتنع ، لأن ظهوره ينفي احتجابه . فإن كان الظاهر محجوباً امتنعت تسميته بالظاهر لأنّ الحجاب أصبح هو الظاهر ، والظاهر هو اسمه تعالى أي ما احتجب الظاهر إلا بشدة ظهوره . فسبحان الواحد الظاهر والباطن والأول والآخر . فالوجود هو مظاهر للأسماء الإلهية . والله هو الاسم الجامع وهو اسم علم يدل على الذات .

من هذا المنطلق نقول إنّ الإحساس أو الشعور بالحب لا يكون إلا بتوهم رؤية الغيرية في هذا الظاهر الواحد المتعدد الدرجات . وتوهّم رؤية الغيرية ناتج عن رؤية الإنسان لترتيب المصور البديع في تجليه الظاهر بالدرجات ، وغفلته عن كونه هو في هذا الترتيب المحكم وظهوره فيه . فتوهّم الغيرية هو لوجود الدرجات في تجلي الواحد البديع الظاهر ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ** . . .﴾[1] ، ولرؤية المتوهِّم

---

(١) سورة غافر : ١٥ .

لهذه الدرجات ، ووقوفه عندها كأجزاء متعددة متفرقة ، لا كوحدة متناسقة الترتيب ، سليمة من اختلاف النوع . قال تعالى ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ . . .**﴾[1] فظهورها من البديع الخالق يدل على وحدتها وعدم اختلافها في النوع ، مع بقاء الترتيب في الدرجات ، والله سبحانه ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَات . . .**﴾ ﴿ . . . **وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**﴾[2] . فإذا علِم الإنسان أنّ رؤية الغيرية أمر متوهَّم ، ناتج عن اختلاف الدرجات في الخلق ، الذي هو تجلّي اسمه الظاهر ، ولا يوجد اختلاف في النوع ، اتسع حبّه للجميع لرؤية الوحدة في الكثرة في الظاهر ، وهذا هو العِلم الذي به يسري الحب والسلام في هذا الكون .

وحبّ النبيّ هو أقرب الطرق إلى السعادة ؛ فجاء البلاغ من الله سبحانه لعباده باتباعه قال تعالى ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . . .**﴾[3] . معلوم أنّ «**كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس**»[4] كما جاء في الحديث . وهذا -فيما يؤكده

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) سورة الإسراء : ٢١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٤) مسلم .

الحديث- يجعل ما يختاره المؤمن والمؤمنة داخلاً في قضاء الله المطلق ، وهو حقّ لا مراء فيه ، قال تعالى ﴿ . . . **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** . . .﴾[1] . فلا شيء يخرج عن قضاء الله المطلق حتى لو كانت ﴿ . . . **لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** . . .﴾ . ولكن إذا تدبّرت الآية يتّضح الأمر بصورة جلية ويزول الالتباس . فالقضاء في هذه الآية تحديداً هو قضاء مقيَّد بالرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . **إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا** . . .﴾ وليس هو القضاء الإلهي المطلق الذي لا يخرج عنه شيء . وحتى هذا القضاء المقيَّد فهو ضمن القضاء الإلهي المطلق . وهذه توضِّح الكثرة في الوحدة إذ كلّ القضاء المقيَّد لا يخرج عن المطلق . ولا يُعذر المرء بأنّ فعله ضمن القضاء الإلهي المطلق . ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾[2] واحتجاجهم هذا هو بالقضاء المطلَق . والاحتجاج بالقضاء المطلق حجة داحضة ، لأنّ المطلق لا يخرج عنه شيء في الوجود . فالأحكام جعلها الله تتعلق بالتقييد لأنّ فيه ترتيب التعامل بين مختلف الدرجات في الوجود . فالآية هنا ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ** . . .﴾ يبقى معناها مقيَّداً بقضاء الرسول

---

(١) سورة القصص : ٦٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٢٠ .

صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . **إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ** . . . ﴾ . فالإلتزام بقضاء الرسول مع قضاء الله هو المفضي للإيمان ، لأنّ الإيمان بالله وحده دون الإيمان بالرسول غير منج قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ** . . . ﴾[1] وقال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** . . . ﴾[2] لأنّ طاعة الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هي التي عليها المدار ، لأنّ طاعته هي اتباع القضاء المقيَّد الذي جعله الله مميزاً لترتيب الدرجات قال تعالى ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[3] فالمؤمن والمؤمنة إن كانت لهم خيرة فهي لا تخرج عن قضاء الله المطلق ﴿ . . . **مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** . . . ﴾ ولكنها تخرج عن دائرة «قضاء الله ورسوله» أي القضاء المقيَّد بقضاء الرسول الذي عليه التنبيه ، لأنه بغير ذلك سيأتي المرء في الآخرة ليقول ﴿ . . . **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** ﴾[4] . فالقضاء المطلق لا يخرج عنه شيء في الوجود كما ذكرنا ، مقيَّداً كان أو غير مقيَّد ، ولا يُعذر به الإنسان .

---

(١) سورة الحديد : ٢٨ .

(٢) سورة النساء : ١٣٦ .

(٣) سورة النور : ٥٦ .

(٤) سورة الفرقان : ٢٧ .

ولكن إذا اختار الإنسان خيرة مخالفة لقضاء الرسول ، فإنه بهذا الاختيار يخرج عن دائرة القضاء المقيَّد بالرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، ولكنه ضمن دائرة القضاء المطلق . وإذا خرجت خيرته عن القضاء المقيَّد بالرسول -الذي هو ضمن القضاء المطلق- انتفى اتصافه بالإيمان رغم وجوده ضمن القضاء المطلق ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . . .**﴾[1] . وهذه توضح شارحة قوله تعالى ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . . .**﴾[2] فالشرك هنا ضمن القضاء المطلق الذي لا يُعذر به الإنسان . وحينما يأتي تدخل الرسول في الأمر والدعوة إلى الله ونبذ الشرك ، وجبت طاعة الرسول ونبذ الشرك . فمخالفة الرسول هنا أصبحت ضمن القضاء المقيَّد الذي عليه الحساب والتعامل . فالقضاء المقيَّد رغم أنه ضمن القضاء المطلق لكن جعل الله الأحكام والمعاملات تتعلق به . ونجد أنّ اتصاف المرء بأنه مؤمن يشترط حبه للرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ففي الحديث «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده**»[3] فهذه الآية إنما هي

---

(١) يسورة الأحزاب : ٣٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٣) البخاري .

توضيح لحب الذات ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّـهِ . . .**﴾[1] إذ إنّ حب النبي هو حب للذات و«**المرء مع من أحب**»[2] . وبالتدبر تجد أنها تشمل جميع الخلق ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ . . .**﴾[3] فهو صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله القمة من كل النفوس ﴿ . . . **مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ . . .**﴾[4] فحب رسول الله هو حب لنفسك لما فيك من الذات الشريفة ، وهو حب للجميع لما فيهم من الذات الشريفة رغم اختلاف درجة الحب التي بها تتوهَّم الغيرية وهي الكثرة في الوحدة . فالكثرة ناتجة عن اختلاف الدرجات ، أما الوحدة فلعدم اختلاف النوع . فالله سبحانه في هذه الآية يبين لعباده الوسيلة إلى السعادة التي هي الحب بأقصر الطرق ، فالغاية هي حب رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله التي هي الإيمان . **فمن أحبّ الرسول فقد أحبّ الله** .

---

(١) سورة الحجرات : ٧ .

(٢) البخاري ومسلم .

(٣) سورة الحجرات : ٧ .

(٤) سورة التوبة : ١٢٨ .

المعصية والاستكبار

الإيمان بالله واليوم الآخر لا يكفي أن يجعل المرء من المؤمنين . فإبليس مؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكنه فاقد للحب وخارج عن الطاعة ، فقد أقرّ بأنّ الله ربه وخالقه ، ولم يدع مع الله إلهاً آخر ، وسأله ولم يسأل غيره ليكون من المنظرين إلى اليوم الآخر . وما كان سبب لعنه وطرده إلا أنه رفض السجود لغير الله . فحينما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لغيره أي لآدم عليه السلام استكبر إبليس وأبى ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾[1] . ﴿ . . . **فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** . . .﴾[2] . فلو كان محباً لما رفض الأمر ، كيفما كان ذلك الأمر ؛ إذ يستحيل مع وجود الحب في القلب للآمِر رفض أمره والاستكبار عليه . أما العصيان فلا يشترط فيه رفض الأمر الذي كان بسببه العصيان ؛ لأنّ رفض الأمر والإباء لا يكون إلا برأي ، يرى صاحبه أنّ الأفضل هو عدم الانصياع للأمر ، ولا

---

(١) سورة البقرة : ٣٤ .

(٢) سورة الكهف : ٥٠ .

يرى حرجاً في عدم طاعته ؛ بل يرى الأفضلية في ذلك ، وهو الطعن في ذاك الأمر وإصداره ، فهو الاستكبار على من أصدره . أنظر استكبار إبليس في خطابه رب العزة جل جلاله حيث قال متعالياً ﴿ . . . **أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾[1]؟ واستطرد ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ . . .**﴾[2] . بينما العصيان قد لا يعني التشكيك في صحة الأمر المطلوب . فقد يكون العصيان عن ضعف كالشهوة مثلاً ، وهو إقرار بصحة الأمر المطلوب ، وإقرار بالضعف في عدم الاستجابة للأمر ، أو قد يكون لحدوث أمر مانع من الاستجابة له ، مع شعور بالحرج . فنجده يستبطن طلب المغفرة ، فيدخل في العفو والمغفرة ، والله عفو يحب العفو ويحب التوّابين ﴿ . . . **وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾[3] . وقد قيل لو يعلم الناس حب الله للعفو لتقربوا إليه بالمعاصي .

قال تعالى ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾[4] . والتوّابون هم كثيرو الخطايا

---

(١) سورة الإسراء : ٦١ .

(٢) سورة الإسراء : ٦٢ .

(٣) سورة الحديد : ٦ .

(٤) سورة النساء : ١١٠ .

والتـــــوبة ، وليس التـــــائبـــــون ﴿ . . . **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ** . . .﴾[1] ففي الحديث القدسي «**أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي**»[2] والله سبحانه أكد في محكم تنزيله رأفته بعباده قال تعالى ﴿ . . . **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[3] أما الإباء والرفض بفتوى فإنه يشكك في صحة الأمر المطلوب ؛ وهو الاستكبار وادعاء العلم وسوء الأدب ، الذي يُبعد عن دائرة المغفرة . فرفضُ إبليس السجود لغير الله أي لآدم عليه السلام جعله من الكافرين لأنه رأى عدم صحة الأمر الإلهي ؛ ورأى صحة عدم سجوده لغير الله ، رغم الأمر الإلهي ؛ وأفتى بأنه خير من آدم . أما آدم فعصيانه كان لقلة عزمه قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[4] ولم يكن عن استكبار . ﴿ . . . **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾[5] وندم على عصيانه ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[6] و«**الندم**

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

(٢) ذكره الغزالي في البداية .

(٣) سورة آل عمران : ٣٠ .

(٤) سورة طه : ١١٥ .

(٥) سورة طه : ١٢١ .

(٦) سورة الأعراف : ٢٣ .

توبة»[1] و«**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[2] فاصطفاه الله ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[3] . فالمعصية لا تمنع اصطفاء الله لفاعلها متى رجع العاصي إلى الله وطلب منه المغفرة . فلقد اختار الله سبحانه موسى رسولاً بعد أن قتل نفساً ، وذلك لأنه ندم على فعله ورجع إلى الله ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي . . .**﴾[4] فغفر له وقال له ﴿ . . . **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾[5] فالمعصية ما لم تكن استكباراً وادعاءً للعلم فمجالها الغفران عند أوبة العاصي لربّه وطلب المغفرة . فالله عفو كريم يحبّ العفو وهو لطيف بعباده قال تعالى ﴿ . . . **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[6] . أما المستكبر فلا يجاور المستكبَر عليه . والله سبحانه لم يطالب عباده بالعصمة ، بل بالتوبة عند ارتكاب المعصية وحدوث الزلل ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ**

---

(١) أحمد وابن ماجة .

(٢) ابن ماجة .

(٣) سورة آل عمران : ٣٣ .

(٤) سورة القصص : ١٦ .

(٥) سورة طه : ٣٩ .

(٦) سورة الحج : ٦٥ .

عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1] وهو العليم سبحانه بما خلق ﴿ . . . وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[2] لذلك قال تعالى ﴿ . . . إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] . ولولا وجود المعصية من الخلق ما كان الله غفاراً ولا غفوراً عفواً رحيماً تواباً . قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[4] .

ولما كان الحبّ هو الأصل في الخلق فالله سبحانه يؤكد لعباده ﴿ . . . إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[5] أما حبّه لرسله وأنبيائه فيعجز العقل عن تصوره ، فتدبر قوله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ . . . وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . . . وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[6] وقال له ﴿ . . . إِنِّي

---

(١) سورة الشورى : ٢٥ .

(٢) سورة النساء : ٢٨ .

(٣) سورة الحج : ٦٥ .

(٤) سورة آل عمران : ١٣٥-١٣٦ .

(٥) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٦) سورة طه : ٣٩ ، ٤١ .

اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي . . .﴾[1] ﴿ . . . وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[2] ويقول لمحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . . .﴾[3] وتبلغ درجة الحب أن يقول له ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ . . .﴾[4] وهو فناء المتجلى عليه في وجود المتجلي ، فلا يبقى غيره إذا تجلى سبحانه . قال تعالى ﴿ . . . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا . . .﴾[5] فعند تجليه سبحانه لا يبقى غيره لينظر إليه ولذا قال سبحانه لموسى عندما ﴿ . . . قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ . . .﴾[6] ﴿ . . . قَالَ لَن تَرَانِي . . .﴾[7] وتنتفي الأغيار رغم وجودها من هيبة المتجلي ، فالجبل لا يبقى جبلاً رغم وجوده ، وموسى لا يبقى موسى رغم وجوده ﴿ . . . وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا . . .﴾[8] وهو الفناء في وجود المتجلي سبحانه ،

(١) سورة الأعراف : ١٤٤ .

(٢) سورة النساء : ١٢٥ .

(٣) سورة الطور : ٤٨ .

(٤) سورة الفتح : ١٠ .

(٥) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٦) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٧) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٨) سورة الأعراف : ١٤٣ .

ولو نطق موسى لقال سبحاني كما قال البسطامي ، فلا يرى الله إلا الله . ويقول عن عيسى عليه السلام أنه ﴿ . . . **رَسُولُ اللَّـهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** . . .﴾[1] ويستشهد سبحانه بقول عيسى وهو الذي أرسله فيقول تعالى ﴿ . . . **كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ** . . .﴾[2] وشهد سبحانه مع الأنبياء لمحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله وقال ﴿ . . . **وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾[3] حين أخذ عليهم الميثاق بالإيمان بمحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ونصرته قال تعالى ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾[4] فحبّ الله هو الغاية والسعادة التي ليس وراءها . فيجب أن يكون القصد في الأعمال هو الوصول إلى هذه الغاية ؛ قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**بشروا ولا**

---

(١) سورة النساء : ١٧١ .

(٢) سورة الصف : ١٤ .

(٣) سورة آل عمران : ٨١ .

(٤) سورة آل عمران : ٨١ .

تنفروا»[1] وقال «**حببوا الله إلى عباده يحببكم الله**»[2] فالله سبحانه ودود ولطيف يحبّ أوبة عبده إليه وهو العفوّ ويحبّ العفو .

قال تعالى ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . . .**﴾[3] ولقد جهل من ظنّ معنى الآية «**وإذا سألني**» عبادي إذ إنّ السؤال هنا هو عن الله سبحانه وتعالى . والرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو المرجعية التي يلجأ إليها من يريد أن يسأل عن الله سبحانه في أموره الدنيوية والأخروية . فالسؤال يجب أن يوجه للرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله أولاً لمعرفة كيفية ما يراد في التعامل مع الله سبحانه ؛ لأنه أعرف الناس بربه وهو الذي يُعلِّم الناس الكتاب والحكمة ، وكانوا قبله من الغافلين قال تعالى ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ**﴾[4] وهم الأعراب ، ولأنه الوسيلة بين الله وعباده قال تعالى ﴿ . . . **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ . . .**﴾[5] لأنه حق وخلق ؛ حق لقوله

---

(١) متفق عليه .

(٢) المعجم الكبير كنز العمال .

(٣) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٤) سورة يس : ٦ .

(٥) سورة المائدة : ٣٥ .

تعالى ﴿ . . . **وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . . .﴾[1] وخلق لتوصيل الرسالة إلى الخلق لأنّ الخلق لا يأخذون عن الله إلا عن طريق الرسل ، ولا تكون علاقتهم بالله سبحانه دونهم . فردهم الله سبحانه إلى رسوله ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ** . . .﴾ لأنّ السؤال كان عنه تعالى ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي** . . .﴾ فالالتجاء إلى الله والسؤال عنه عن طريق الرسول يؤكد صحة المسار ، فليس في تخطّي الرسول فائدة ؛ إنما هو جهل وانحراف واستكبار ودعوى عِلم فاسدة . ولا يظن أحد أنّ علاقته مع الله دون الرسول بها شيء من الصحّة أو أنها من التوحيد كما فعل إبليس ؛ لأنّ الضمان لصحة العلاقة مع الله هو أن تكون عن طريق الرسول المعصوم الذي أرسله وأوحى إليه ، وإلا لانعدم الضمان وحصل الانحراف والضلال . ولقد فعل الحواريون ذلك مع عيسى عليه السلام فكادوا أن يهلكوا حين قال لهم ﴿ . . . **مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ** . . .﴾[2] فلم يقولوا نحن أنصارك إلى الله كما طُلب منهم بل تخطوه وقالوا ﴿ . . . **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ** . . .﴾[3] فحرموا أنفسهم من معيته التي فيها ضمان صحة السلوك والتقوى . فبالمعية تكون المحبة قال تعالى

---

(١) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٢ .

(٣) سورة آل عمران : ٥٢ .

﴿ . . . **اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾[1] فمعية الصادقين هي أيضاً من الضمان لصحة السلوك ولا غنى عنها حتى لأهل التقوى ، وهي التي تقي الإنسان الانحراف عن صحة المسار . قالت بلقيس ﴿ . . . **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[2] فعرَفت أنّ الضمان يكون في معية الرسول سليمان عليه السلام . فكان الأولى بالحواريين أن يقولوا نحن أنصارك إلى الله أو نحن معك أنصاراً لله ويلزموا معيته وحبه عليه السلام ولكنّهم تخطّوه وادّعوا علاقتهم مع الله دونه فإذا بهم يرجعون إليه بالشك في صدقه ورسالته فقالوا ﴿ . . . **وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا** . . . ﴾[3] .

فالذي يظن أنّ العلاقة مع الله تكون دون الرسول إما أن يكون جاهلاً ويظن أنّ ذلك هو التوحيد ؛ فيكون من الذين ضلّوا ﴿ . . . **وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِه** . . . ﴾[4] أو مستكبراً لا يرى فضلاً للرسول عليه ، ويريد أن تكون علاقته مع الله دون الرسول كما فعل إبليس ؛ وهو فاقد للحبّ في الحالتين ، وألقى بنفسه في الضلال والهلاك . فلا إيمان للذين

---

(١) سورة التوبة : ١١٩ .

(٢) سورة النمل : ٤٤ .

(٣) سورة المائدة : ١١٣ .

(٤) سورة النساء : ١٥٠ .

آمنوا إلا بحبّ محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . وليس الاتباع هو الحبّ لأنه قد يكون عن خوف أو ابتغاء مكانة أو نفاقاً ، وقد يكون عن حبّ ولكنه ليس هو الحب . فالحبّ إحساس في القلب يفضِّل فيه الإنسان المحبوب على نفسه وماله وولده وهو كما جاء في الحديث «**حبك الشيء يعمي ويصم**»[1] قال تعالى ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[2] والذي يظن أنّ علاقته مع الله تكون دون أن يبتغي إليه الوسيلة التي هي رحمته التي كتبها على نفسه سبحانه والتي هي محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، مفسراً القرآن على فهمه للتوحيد ، فقد أضله الله على علم . فالوسيلة إلى الله هي رحمته وهي قول الحبيب صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**إنما أنا رحمة مهداة**»[3] وقوله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[4] .

---

(١) سنن أبي داود .

(٢) سورة التوبة : ٢٤ .

(٣) الحاكم .

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

من الناس من يرى أنّ الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله جاء بالرسالة من الله للناس وأدّى الأمانة وانتقل ، فعلاقتهم الآن بالله عن طريق الرسالة ، ولا وجود للرسول في حياتهم وفصَلوا الرسالة التي هي الدين عن الرسول . فهؤلاء يفتقدون الحبّ للنبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لعدم وجود علاقة بينهم وبينه لاكتفائهم بالرسالة دونه كما يعتقدون بأنّ ذلك هو التوحيد . وهؤلاء مرجعيتهم في الدين أي الرسالة هي ذواتهم وفهمهم للنصّ القرآني حسب وسعهم وما أعطاهم الله من الفهم وهو الاستكبار . وليس لهم ميزان يحكمون به على صحّة أفهامهم وإن قالوا واعتقدوا في تقديس النص القرآني . فكلام الله لا يحاط به تفسيراً ، وقد يكون فهمهم للنص وما تبادر لهم غير ما هو مقصود منه . وكثير منهم رأوا الدين فيما جاء به من سبقهم في الاجتهاد والشرح واكتفوا بما جاء به أسلافهم وقدسوا ذلك وقالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا من السلف ، ويعطلون عقولهم ، ويرفضون كلّ من يأتي ببحث في الدين ، ولو كان محقاً إلا أن يقول لهم كما قال السلف!! كأنّ السلف هم الذين أصبحوا نيابة عن الرسول ، وهم المسئولون عن الرسالة التي جاء بها النبي كما يقولون فبلّغهم بها وانتهى دوره . وأصبح التقيّد بالمذاهب وأقوال السلف هو الدين ويحكمون على من خرج من المذهب بخروجه من الدين ، وهذا باطل لأنه يُخرِج الذين سبقوا أصحاب المذاهب

من الإسلام . كما أنهم يقصرون رحمة الله في العِلم على السلف فلم يبق له سبحانه عندهم من عِلم يفيض به على أحد من عباده بعد السلف ، فحجّروا واسعاً وصار كتاب الله بفهمهم هذا ليس صالحاً عندهم لكل زمان .

ولا يستقيم فهم النص القرآني وتفسيره إلا بتقديس النص لا بتقديس الفهم مهما كان مصدره ، ثم الاعتقاد بعصمة الرسول لأنّه حقّ صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لأنّ النص المقدس يرد الإنسان إلى المعصوم صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** . . . ﴾[1] وهذا يؤدي لتنقية الآثار التاريخية والدينية مما علِق بها من التحوير والتزوير لا إلغائها بالكلية . فالمرويات التاريخية لعبت فيها أيادي السلطان كما لعبت في المرويات الدينية لتقديس السلطان وترسيخ سلطته . فإذا اصطدم فهم النص مع عصمة الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله فلا عبرة بهذا الفهم أياً كان صاحبه ، سلفياً أو غيره ، لأنّ الرسول لا يخطىء لأنه حقّ كما قال الله سبحانه . وكل من هو دون الرسول لا عصمة له ولا قداسة لفهمه . ولا عدل لمن خالف رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . وهناك من السلف من يقول بخطأ الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه

---

(١) سورة الحشر : ٧ .

وآله ويدّعي عبوسه في وجه أعمى ، وصلاته على منافق . ورددنا على كثير من هذه الافتراءات في كتابنا «**شفاء الذم**»[1] .

التفضيل في الخلق وارد حتى بين الرسل عليهم السلام ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . .**﴾[2] والذي يرى أنّ الرسول أدى الرسالة وانتقل ، وأنّ علاقته الآن مع الله والرسالة دون الرسول فقد ضلّ واستكبر استكباراً عظيماً ، وفقد الحب في الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . والذي يظنّ صحّة علاقته بالرسالة دون الرسول هو في الحقيقة اتخذ الذي جاء في الموروث على أنه الرسالة ، فيأخذه وفيه ما ينفي عصمة النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله مثل القول بسيطرة الشيطان عليه ، وسيطرة السحرة ، وعبوسه في وجه الأعمى . وفقدُ الحب في رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو فقد الإيمان لقوله «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده**» . فكيف يرتكز المرء في دينه على ما يوجد في هذا الموروث الذي يظن أنه الرسالة التي جاء بها رسول الله ، وفي هذا الموروث ما ينفي عصمة الرسول؟

---

(١) كتاب «شفاء الذم من اتهامات المسلمين للنبي الأعظم» الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ٢٠١٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٣ .

وينتفي حب رسول الله -الذي هو الإيمان- عند من يرى نقصاً في عصمة رسول الله .

أما الاستكبار فهو سوء الأدب و«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1] ولا يجتمع الحبّ مع الاستكبار في قلب واحد ، فالكِبر ناف للحبّ ويدل على قسوة القلب ﴿ . . . **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم** . . .﴾[2] . والاستكبار هو ما ينتج عنه تصرُّف أي عمل لا ينمّ عن الخُلق القويم . فهو موجود عدمي إذا أحبّه المرء تكيّف سلوكه بالتصرف الاستكباري فلا يرى في الناس من هو أفضل منه في فكر أو عمل . فحبّ الاستكبار هو حبّ لأمر نتاجه السلوك لمتعة الذات الوقتية ، وليس حباً للذات ، والفرق شاسع بينهما . لأنّ حبّ الذات يوجد في احترامها الذي يكون في احترام الآخر ومراعاة السلوك والتودد إلى الناس والبر والإحسان والعفو وعدم الانتصار للنفس والتواضع والإيثار . فإذا غفل المرء عن حب الذات الذي لا إحساس به وهو الذي ينعكس على سلوكه في حُسن الخُلق ، والذي ينبغي مراعاته لينال السعادة في الدنيا والآخرة ، ساقته هذه الغفلة لحبّ الهوى واتباعه للاستمتاع بما يفعل ، دون التفكير فيما يجلب له السعادة المطلوبة في

---

(١) مسلم .

(٢) سورة الزمر : ٢٢ .

الدارين ؛ فينحصر حبه في فعله وهو الاستكبار دون مراعاة لأوامر الخالق في كيفية التعامل الإنساني التي جاءت بها الرسل لإسعاده في الدارين . فالاكتفاء بمعرفة الرسالة ممن سبق من السلف فيما فهموا وقالوا ، دون الالتفات إلى عصمة من جاء بها مقرونة مع النص القرآني ، هو الاستكبار والضلال والبعد عن محبة النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . وفهم النص القرآني يجب أن يكون من منطلق حب الله لرسوله وبغير ذلك تفتقد المحبة عند الذين يجنحون لإثبات اللوم على من قال فيه الله ﴿ . . . **فَمَا أَنتَ بِمَلُوم** ﴾[1] . وكل تفسير لكلام الله سبحانه بغير مراعاة حب الله للنبي عارٍ عن الصحة ولا يقود إلا إلى الضلال والبعد عن محبة النبي التي بفقدها يفتقد الإيمان .

(١) سورة الذاريات : ٥٤ .

الوطن

بما أنّ الحبّ هو الأصل في الوجود والقصد في الحياة الدنيا والآخرة ، فالرفض لما يضادّه هو الأساس . فوجود الإنسان وبقاؤه في أرض ، مع المعاناة تحت الضغط النفسي وسلب الحرية ، أمر يجب على الإنسان اجتنابه . إذ إنّ البقاء فيها يضاد الحبّ الذي من أجله كان الوجود وتكريم بني آدم ، ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** . . .﴾[1] الذي نفخ الله فيه من روحه واستخلفه في الأرض ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ** . . .﴾[2] . فأرض الله واسعة . والوسع هو المخرج من الضيق والكدر . وينتفي الضيق بوجود الحرية ؛ إذ إنّ في الحرية لا يوجد تدخل من الغير بالتضييق على حياة المرء . فمتى كان هناك سلب للحرية فطلب الحرية هو الأولى ، فإن تعسرت فقد وجبت عليه الهجرة ، فأرض الله واسعة . ولقد هاجر أصحاب النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله من مكة حين ضيّق عليهم أهلها في حريّة اعتقادهم إلى الحبشة لوجود العدل فيها .

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٥ .

فالحرية هي التي رعتها الأديان وجاءت بها رسل الله سبحانه احتراماً للعقل الإنساني ؛ حتى في اعتقاده في خالقه وإن كان سلبياً ، قال تعالى ﴿ . . . **وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** . . .﴾[1] وقال للكافرين ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ** . . .﴾[2] رغم أنّ دينهم كفر . ولم يجعل الله سبحانه لأحد حقّ الحساب أو العقاب أو التعدي على أحد في فكر أو معتقد في هذه الدنيا – ولو كفر بالله سبحانه– ولم يعط ذلك الحق لرسله . وقال لصاحب الرسالة الخاتمة صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾ فلم يجعل ذلك لرسله عليهم السلام ، وما طالبهم بغير البلاغ قال تعالى ﴿ . . . **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾[3] فالأمر في شأن من تولى وكفر ليس لأحد في هذه الدنيا ، بل عند الله في الآخرة ﴿**إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ**﴾[4] ، فإن شاء عذّب وإن شاء غفر . فكيف أباح الناس لأنفسهم في هذه الدنيا ما لله في الآخرة؟!!

فالله سبحانه لم يُعط حق الحساب أو العقاب لمن أرسلهم بشريعته . قال تعالى ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ**

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

(٢) سورة الكافرون : ٦ .

(٣) سورة النحل : ٣٥ .

(٤) سورة الغاشية : ٢٣-٢٤ .

وَمُنذِرِينَ . . .﴾(١) وقال تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . . .﴾(٢) وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾(٣) وقال تعالى ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . .﴾(٤) فما لم يكن للرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله كيف يمكن أن يكون لغيره ليسلب الناس ما أعطاهم الله من الحرية حتى لمن شاء أن يكفر؟ فالرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ما عليه إلا البلاغ وقال له تعالى ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾(٥) وقال تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ . . .﴾(٦) وهذه توضّح حرية المعارضة وعدم الإكراه والسيطرة لقوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا . . .﴾ . وحرية المعارضة أعطاها الله سبحانه لإبليس حيث رفض أمر الله بالسجود لآدم مستكبراً على الله وقال لرب العزة جل جلاله بعد رفض أمره ﴿ . . . لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى

---

(١) سورة الأنعام : ٤٨ .

(٢) سورة يونس : ٩٩ .

(٣) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٤) سورة القصص : ٥٦ .

(٥) سورة الغاشية : ٢٢ .

(٦) سورة الشورى : ٤٨ .

﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1] ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[2] فهل هناك معارضة أعظم من ذلك ، وبعد أن رفض الأمر الإلهي بالسجود؟ فكيف كان التعامل الإلهي مع هذا المعارض لرب العالمين برأيه وفعله مستكبراً عليه؟ هل تم منعه وقمعه؟ أم أعطاه الحق في المعارضة واستجاب لطلبه في البقاء إلى يوم القيامة؟ ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ . .﴾[3]؟ سبحان الحليم الحكيم . فالذي تبين لنا فيما جاء في هذه الآيات – ولا ألزم أحداً برأيي هذا لأنّ كلام الله لا حصر لمعناه– أنّ الحرية يجب احترامها ، حتى لو نتج عنها اعتراض على الله سبحانه وتعالى نفسه واستكبار عليه ورفضٌ لأمره . وهو سبحانه لا غيره الذي يحاسب ويعاقب على ذلك أو يعفو ﴿ . . . وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ . . .﴾[4] . فما أوضح عظمة الحِلم الإلهي

---

(١) سورة الإسراء : ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٧ .

(٣) سورة الإسراء : ٦٣-٦٤ .

(٤) سورة هود : ١٢٣ .

هنا ، سبحانك يا حليم يا عظيم . ولقد سبق الملائكة إبليس في النزاع مع الله سبحانه حيث قالوا له ﴿ . . . **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ . . .**﴾[1] فردّهم الحليم العليم سبحانه وتعالى بما أراهم في نقص عِلمهم مما علّمه لآدم عليه السلام ، حينما علّمه الأسماء كلها ثم عرض المسميات عليهم فعجزوا عن معرفتها ، فرجعوا عن نزاعهم ودعوى العِلم وقالوا ﴿ . . . **سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا . . .**﴾[2] . وهذا هو الذي يجب أن يكون عليه العلماء ، فالملائكة الذين علِموا ما سيكون من الإنسان من إفساد وسفك دم في الأرض –وهو عِلم بما سيكون– أثبت الله سبحانه لهم رغم ذلك نقص عِلمهم .

هناك من ادعوا العِلم وأفتوا بجهالة أنّ غيب المستقبل اختص الله سبحانه به نفسه ، وليس لأحد من خلقه ادعاء ذلك . وكفّروا كلّ من يقول بغير فتواهم هذه واستباحوا دماءهم . ويستدلون على فتواهم هذه بقول الله تعالى ﴿ . . . **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ . . .**﴾[3] فحصروا عِلم الغيب كلّه على ما يكون في

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

(٢) سورة البقرة : ٣٢ .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٨ .

المستقبل وهو عندهم لا يجوز إلا لله سبحانه . وظنوا أنّ ذلك هو التوحيد!!! ولو تدبّروا لما جهلوا وحصروا كلام الله في فهمهم القاصر . فعِلم الغيب ينقسم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول هو غيب الماضي وقد أعلم الله بذلك رسوله في كتابه الكريم مما كان في الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم نوح ، ومنه عِلم الآثار الذي كشف عن حياة الأمم السابقة وحضاراتهم وعلومهم إلى غير ذلك .

القسم الثاني هو غيب الحاضر وهو ما يكون في بلاد بعيدة في الوقت نفسه ، وهذا أيضاً أتاحه الله لعباده بواسطة التقدم العِلمي في الاتصالات .

القسم الثالث هو غيب المستقبل الذي أفتوا بأنّه عِلم الغيب الذي اختص الله به نفسه وقالوا لا يجوز لأحد من خلقه أن يقول بغير ذلك ، وهذا يعني عندهم أنه لا يعلم ما في غد إلا الله!! وبذلك يصير علماء الأرصاد آلهة لهم ، وكذلك الذين يحددون الكسوف والخسوف وهلم جراً . وفتواهم هذه تدلّ على أنهم ﴿ . . . **أَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ** . . .﴾[1] إذ لو تدبّروا القرآن كما أمر الله سبحانه ﴿ . . . **لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** . . .﴾[2] لما جهلوا . فلقد جاء في قصة

---

(١) سورة التوبة : ٩٧ .

(٢) سورة ص : ٢٩ .

موسى وشعيب عليهما السلام قول شعيب لموسى ﴿ . . . **أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ** . . .﴾ فهذا عقد زواج بين رسل حاشاهم الجهل ، ويدل على أنّ موسى وشعيباً يعلمان أنهما والزوجة محل العقد ، لن يموتوا في السنين المقبلة ليتم العقد ، بل إنّ بقاءهم يمتد إلى ما بعد تمام العقد . وهذا مثل قرآني يدل على إمكانية علم الإنسان بغيب المستقبل لمن اختصه الله بذلك . والفتوى بأنّ المستقبل لا يعلمه إلا الله وحده ولا يكون لغيره تلزم أصحابها بتأليه إبليس ، لأنه كان يعلم أنه سيكون لآدم ذرية ، وفيهم عباد مخلصون لا يستطيع إغواءهم ويعلم أنّ هناك يوماً للبعث ، كل ذلك وآدم لم يدخل الجنة بعد!!! فلم يترك من علم المستقبل شيئاً ، وبفتواهم هذه يكونون قد اتخذوا إبليس إلهاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فهذه الأقسام الثلاثة مرتبطة بالزمن الماضي والحاضر والمستقبل ، ولقد أتاحها الله سبحانه لعباده لأنّها متضمنة في الزمن ، واختصّ سبحانه نفسه بالقسم الرابع الذي لا علاقة له بالزمن ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملَك مقرّب وهو علم النفع والضرّ قال تعالى ﴿ . . . **وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى**

أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1] .

أما قوله تعالى **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[2] فمردّ العِلم هنا إلى الله سبحانه ، ولكن لا يوجد ما يمنع إعطاء تلك العلوم لأحد من خلقه . فآية النفع والضر تنتهي بقوله تعالى **﴿ . . . وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** وتعني اختصاصه سبحانه بعِلم النفع والضر . أما في نهاية هذه الآية يقول سبحانه **﴿ . . . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** فلا يمنع سبحانه تعليم عباده من هذه المذكورات فيها . وقد ثبت في العِلم الحديث عِلم ما في الأرحام للأطباء ، ولا يعني ذلك إلا أنّ الله سبحانه يُتيح من هذه العلوم لمن يشاء من عباده قال تعالى **﴿ . . . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ . . .﴾**[3] أما عِلم الضر والنفع كما ذكرنا لا يعلمه إلا الله . فالعالِم يتصف بعدم الاستكبار وهو يعلم أنّ فوق كلّ ذي علم عليم ويقول كما قالت الملائكة **﴿ . . . سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا . . .﴾** فالعِلم لا حدود له والتواضع شيمة العلماء .

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٢ .

والقصد من معارضة إبليس لله سبحانه وتعالى على التحقيق هو تبيين الحقّ للناس بالوضوح الذي ينفي الشك ، ويؤكد اليقين والله أعلم بمراده . لذلك فإنّ لعنة إبليس أي طرده واستمرار معارضته وغوايته للناس وصرفهم عن شكر الله ، والسلوك القويم سارية إلى الأجل الذي حدده له الله سبحانه وهو يوم الدين . قال تعالى ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**﴾[1] وهذا هو الأجل المحدّد للعنه وطرده وليس بعد ذلك . فمعارضة إبليس إنما هي لتوضيح الباطل الذي يجب على الناس اجتنابه . وبما أنّ الحق لا ينقسم فوجود منازع إنما يبين أين يكون الحق المقصود من العباد اتباعه . فالله سبحانه لطيف بعباده ومريد للخير ولا بد من تبيانه لهم . ولا يكون ذلك إلا بوجود من يمثّل الشر وتبيانه لهم لاجتنابه . وكلّ ذلك يختص بهذه الحياة الدنيا التي هي معبر للدار الآخرة ذات الخلود . وبنهاية هذه الحياة الدنيا وانقضاء الأمر فيها ينتهي دور الشيطان ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ**

(١) سورة ص : ٧٨ .

مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] .

فإذا كانت المعارضة مسموحاً بها أمام رب العزة جل جلاله فأين مكان الإكراه؟ فلا يحق لأحد أن يتجبر في أرض ويُكرِه الناس على مراده ويسلبهم حرياتهم في الفكر والاعتقاد ؛ ويدّعي أنّ الله أعطاه الحق في ذلك ليحكم بالدين الذي أنزله الله!!! وهو أمر لم يعطه الله سبحانه لأحد من رسله عليهم السلام . فالحكم بما أنزل الله ما هو إلا تشريع يتعامل به الناس ، لا يوجد فيه إكراه على أحد من الخلق ولا يعني تكوين حكومة وسيطرة . أما الحكم الذي يدعيه هؤلاء لإقامة الدين بالسيف فهو يقوم على الإكراه والإجبار على مُراد الحاكم ومذهبه ، وفرض دفع جزء من أموالهم بادعاء حمايتهم وأمنهم وللحفاظ على دينهم ، إلى غير ذلك مما يرى السلطان ، وليس هذا من الدين في شيء . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**ألا إنّ رحى الإسلام دائرة ، فدوروا مع الكتاب حيث دار ، ألا إنّ كتاب الله والسلطان سيفترقان ، فلا تفارقوا الكتاب ، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يرضون لأنفسهم ما لا يرضون لكم ، إن أطعتموهم أضلوكم وإن عصيتموهم قتلوكم**»[2] فإذا كان ذلك في أرض فما على المرء إلا الهجرة إلى أرض

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني .

غيرها يجد فيها حريته . وقد هاجر أصحاب النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله من مكة حين سُلِبت حريتهم في معتقدهم إلى الحبشة لوجود العدل عند ملِك الحبشة المسيحي كما ذكرنا . وهاجر النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله من مكة رحمة بها من الهلاك ، فلم تكن لمكة قداسة إلا برسول الله ، قال تعالى ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ**﴾[1] . فالله سبحانه ينزل العقاب على الكفار حينما يحاولون الاعتداء على رسله لا على كفرهم ، فكفرهم يعالج بالبلاغ من الرسل ، ولا يُقتل كافر لكفره إلا إذا كان محارباً وقبل أن يؤسر ، فلا قتل للأسرى في الإسلام . فإذا ضاق الكفار من دعوة الرسول بالبلاغ وهمّوا بالاعتداء عليه أخذهم الله بالعذاب ﴿ . . . **وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ** . . .﴾[2] فكانت هجرة الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله من مكة قبل أن يعتدوا عليه رحمة بها . كما أنّ البيت الحرام ما كان قبلة ولم يجعله الله سبحانه قبلة إلا لرغبة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله قال تعالى ﴿ . . . **فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا** . . .﴾[3] . فما نال

---

(١) سورة محمد : ١٣ .

(٢) سورة غافر : ٥ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٤ .

المسجد الحرام حرمته في أن يكون أفضل المساجد إلا لأجل محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله .

ولكننا نجد اليوم الجاهلين من الذين آمنوا – وليس المؤمنين– وبعض فقهائهم ينكرون على الناس أن يلجأ أحدهم إلى من يؤمن بعيسى عليه السلام إذا كان في ذلك ضمان لمعتقده وحريته ؛ متناسين أو جاهلين أو رافضين لما فعله أصحاب محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله كأنهم لم يقرأوا قوله تعالى ﴿ . . . **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِّن رُّسُله** . . .﴾[1] أو أنهم ﴿ . . . **أَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُوله** . . .﴾ ولا يسعون إلا إلى التفرقة والبغض والكراهية خلافاً لما جاء به نبي الرحمة صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . ويدّعون أنّ ذلك هو الإسلام ويكفِّرون من خالفهم!! وربما تجد عند بعضهم نفوراً من نبي الله عيسى عليه السلام ، وما جاء به كأنّ الله لم يبعثه رسولاً ، بينما لا يكون إيمان لمسلم إلا إذا آمن به وبكتابه الإنجيل . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**الأنبياء إخوة ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»[2] .

إنّ كل من أُدخِل في الإسلام كرهاً فقد أُدخِل في النفاق وليس في الإسلام . فالمكرَه على شيء يُظهِر الموافقة خوف

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٢) البخاري .

السيف ، وباطنه يلعن من أكرهه وما أُكرِه عليه . فالذين يريدون إدخال الناس في الإسلام بالسيف كما يقولون فإنهم يريدون إدخالهم في النفاق . فمن أين جاءت السيطرة والإكراه وسلب الحريات؟ فليعلم الذين يقولون إنّ الإسلام انتشر بحد السيف أنّ الذي انتشر بحد السيف هو النفاق وليس الإسلام . فما يسمّونه بالفتوحات الإسلامية هو اعتداء على تلك الأمم و﴿ . . . **إِنَّ اللَّـهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾[1] فهو استعمار لدول باسم الإسلام افتراءً عليه ، لعدم وجود إكراه في الإسلام ، لأنّ الإكراه يولد النفاق الذي يجعل صاحبه في الدرك الأسفل من النار . ولقد اتخذوا من هذه الحروب وسيلة لاستعباد الناس واسترقاقهم ويقولون إنّ الإسلام يبيح لهم ذلك وما ينبغي لهم! فقد كان استرقاق أسرى الحرب موجوداً عند الأعراب ومعترفاً به قبل الإسلام ، فجاء الإسلام بالشريعة التي وفّرت للأرقاء سبل استعادة حريتهم بعدة طرق كالمكاتبة والعتق ، وحضّ على ذلك . وأسرى الحروب في الإسلام فالأسر لهم أمانٌ من القتل والاسترقاق ، والقاعدة هي ﴿ . . . **حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** . . . ﴾[2] والتعامل مع الأسرى يكون بالتكريم قال تعالى ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى**

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة محمد : ٤ .

حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1] . فلا سبيل للاسترقاق في الإسلام .

ومن أجل تبرير غزواتهم الاستعمارية سمّوا حروب النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله الدفاعية بالغزوات ، وقالوا إنّها كانت من أجل نشر الإسلام . فسمّوا معركة بدر غزوة ، وهي لم تكن من أجل أن يقول الناس لا إله إلا الله ، بل كانت بقصد ردّ أموال المسلمين . وسمّوا معركة أُحد غزوة ، وهي كانت دفاعاً عن المدينة والغزاة كانوا من مكة . وسمّوا معركة الخندق غزوة . ويا للعجب كيف يكون الذي يعمل خندقاً للحماية غازياً؟! والنبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله نُصِر بالرعب حين غزا وليس بالسيف كما يقول المبطلون ، وكان ذلك في فتح مكة ، ولم يسمّوها غزوة حتى لا تبطل دعوى حروبهم بالسيف . فقد قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**نُصِرت بالرعب**»[2] وهو أصدق القائلين . ولذا عندما فتح مكة بالرعب لم يفرض عليهم الإسلام ، ولم يأمرهم حتى بأداء الشهادة ، وهذا كفيل بإسقاط الحديث «**أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[3] لأنه لو كان هناك أمر له من الله

---

(١) سورة الإنسان : ٨ .

(٢) مسلم .

(٣) البخاري ومسلم .

بذلك لقال لهم قولوا لا إله إلا الله ، وإلا كان مخالفاً لأمر الله سبحانه وهذا هو المحال!! ولو قال لهم قولوها لقالوها لأنهم مقهورون ، ولكان ذلك إكراهاً ، ولا إكراه في الدين ، لذلك لم يقل لهم قولوا لا إله إلا الله ﴿ . . . **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** . . .﴾ . قال تعالى ﴿ . . . **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾[1] .

ويأتي سؤال في غاية الأهمية وهو لماذا غزا رسول الله مكة وفتحها؟ ولم ينتج عن فتحها سلب أو سبي أو عِقاب أو أخذ مال!!! لقد كان كبار القوم المتسلطين فيها يفرضون على الناس عقائدهم ويتعاملون بلا رحمة مع من يخرج عن دينهم أو يرفض السجود لأصنامهم ، ونقضوا عهدهم مع رسول الله . وكان هذا هو السبب لغزو مكة . فهو لم يكن إلا من أجل الحرية ليكون للفرد حريته في اختيار ما يشاء من الدين ، فأنهى رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله سلطة زعماء قريش وأطلق الحرية للجميع «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[2] أي ﴿ . . . **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** . . .﴾ ولم يفرض عليهم دينه العظيم الذي أساسه الحرية والأخلاق . ولم يفرض عليهم جزية لمن أراد البقاء على دينه!!!

---

(١) سورة ق : ٤٥ .

(٢) فتح الباري .

ومن أسوأ ما فعلوا من أجل أن يصحّحوا حديثهم المفترى «**أُمِرت أن أقاتل الناس . . .**» أنهم أفتوا بنسخ آيات من كتاب الله سبحانه – ولا حول ولا قوة إلا بالله – وقالوا نُسِخت بآية السيف!!! فجعلوا للسيف آية لم يقل بها رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، فقلبوا ما جاء به محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله رأساً على عقب ، إذ جعلوا السيف مكان الرحمة ، وجعلوا الدعوة بالحرب مكان ما حدد الله سبحانه ألا وهي الدعوة بالبلاغ وليس بالحرب . إنّ الذي يتجرأ ويدّعي أنّ هناك آيات مما أنزل الله تُقرأ وتُرتل ويصلي بها المسلمون قد صارت منسوخة لا قيمة لها فقد ادّعى نبوّة فوق نبوّة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، ورسالة ما أنزل الله بها من سلطان وافترى على الله . فالرسالة ما هي إلا البلاغ ، لا سيف فيها ولا إكراه قال تعالى ﴿ . . . **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ . . .**﴾ فإن لم يقبل الناس منهم البلاغ لا يجب عليهم إكراههم على ما جاءوا به . وللناس الحرية في الاعتراض على الرسل . فقد اعترض إبليس على الله سبحانه في حضرته فلم يجبره . قال تعالى ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ . . .**﴾ وقال تعالى ﴿ . . . **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . .**﴾ .

والذي يصرّ على صحة الحديث «**أُمِرت أن أقاتل الناس . . .**» إما أن يكون قصده أنّ النبي صلى الله وبارك عليه

ووالديه وآله يُخطئ ويخالف ربّه في أداء الرسالة ؛ ليمكنه القول بأنّ هناك من يُصحّح الرسول في أداء رسالته ؛ وإما أن يكون قصده اتخاذ الدين غطاءً للسياسة والاستعمار وحُكم الناس والتسلط عليهم وفرض تقديسه عليهم كأنّه وكيل الله في أرضه . وقال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»[1] لأنّ خالداً بن الوليد قتل عدداً من المشركين في ذلك اليوم الذي فتح فيه الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله مكة . فلا وجود للسيف في حرب النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله إذا غزا -كما حصل في فتح مكة- ولم يأمرهم بقول لا إله إلا الله حتى لا يكون مُكرِهاً إياهم . كذلك لم يأمرهم بالإيمان بأنّه رسول الله بل قال لهم «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[2] . فإعمال السيف في غزو النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لمكّة لم يكن بأمر النبي بل تصرّف فردي من خالد بن الوليد ، وقد تبرأ النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله منه .

ومن الطلقاء الذين أشير إليهم في الحديث السابق أبو سفيان الذي كان يأكل من أموال المؤلفة قلوبهم إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فمنعه منها . فهل يكون هذا هو

---

(١) البخاري .

(٢) ابن أبي شيبة .

السبب الذي جعل أئمة المساجد يأخذون أجراً من الدولة لتأدية الصلاة استناداً على فعل أبي سفيان؟ وهل أخذُ الأجر هذا يجعلهم في مصاف المؤلفة قلوبهم؟ فالأجر على شعيرة من شعائر الإسلام إنما هو للمؤلفة قلوبهم قبل أن يتمكن الإيمان في قلوبهم ، ويعلموا أنّ الأجر في أداء الصلاة وفيما فرضه الله عليهم عند الله وليس عند الحاكم . والسؤال هو هل تصحّ إمامة من يأخذ أجراً على الصلاة من الناس؟ وهل يحقّ لمن يصلّون مقابل المال الإضراب إذا لم يُعطوا أجورهم؟ وهل لمنظمات العمل التدخل إذا لم يُعطَوا رواتب مقابل إمامة الصلاة؟ وقد اتخذت بعض وزارات الأوقاف في بعض الدول قرارات بمنح أئمة المساجد إجازة يوم عن الصلاة في كلّ أسبوع!!

قال الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله يوم فتح مكة «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن**»[1] ولم يكن أبو سفيان قد أسلم بعد ، فيا لها من سماحة وخُلق عظيم . ومن الطلقاء معاوية بن أبي سفيان الذي تمّت على يديه ما تسمّى بالفتوحات الإسلامية افتراءً على الإسلام الذي لا اعتداء فيه ولا إكراه على الأمم . فالإسلام دين و﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** . . .﴾[2] لذلك لم تبق تلك الدول التي استعمروها

---

(١) مسلم .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ .

تحت ما سُمّي -افتراءً- بالحكم الإسلامي الذي فُرِض عليها . فثارت وأعلنت الحرب على ذلك الحكم اللاإسلامي ، لأنّهم لم يجدوا فيه الرحمة التي جاء بها نبي الرحمة في تعامله ، بل وجدوا أنفسهم مقهورين تحت الاستعمار العربي باستعباد وسبي وسلب ونهب يفتقد الرحمة في كلّ شيء . ويستحيل وجود الحب لما أُكرِه عليه الإنسان . وما جاءت الأديان إلا لتؤسس مجتمعات الحبّ والسلام .

فبالنظر إلى ما كان مما سُمِّي بالفتوحات الإسلامية وما كان من إكراه للشعوب تتضح أهميّة الحريّة في الفِكر والمعتقد . ولذا كان لزاماً على المرء وواجباً عليه الخروج والهجرة من دائرة التضييق عليه ، لتضاد ذلك لمنهج الوجود الكوني الذي أصله الحب ، وإن لم يفعل فقد ظلم نفسه . قال تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾[1] . فواجب على الإنسان أن يقدِّر تكريم الله له ولا يقبل الذلّ والهوان . لأنّ بقاء الإنسان حيث

---

(١) سورة النساء : ٩٧-٩٩ .

التضييق عليه وفقدان حريته هو ظلم لنفسه التي كرّمها الله ، قال تعالى ﴿ . . . **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1] فعليه أن يهاجر احتراماً لإكرام الله له ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ . . .**﴾[2] إلا إذا لم تكن له حيلة ولا وسيلة للخروج من ذلك التضييق وحرمان الحرية . فلا يظن أحد أنّ الإسلام يأمره بالبقاء في أرض تنتقص فيها حريته ، ويظن أنه بذلك يحافظ على أمّة الإسلام . بل تجب عليه الهجرة إلى بلد يجد فيها حريته كما فعل أصحاب النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله حيث هاجروا إلى بلد ملكه مسيحي عادل . قال تعالى ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[3] فالله سبحانه لا يهلك قرية – وكلمة قرية تعني البلاد – ولو كان أهل القرى مشركين به سبحانه ، طالما أنّهم مصلحون ، والناس فيها يسعدون بالمساواة في الحقوق والواجبات .

ولا تعني الهجرة نفي الحبّ للوطن ، فقد يكون الحبّ للوطن موجوداً رغم الهجرة . والوطن قد يكون هو حيث توجد حرية الفكر والمواطنة القائمة على المساواة بين السكان في

---

(١) سورة النحل : ١١٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٣) سورة هود : ١١٧ .

الواجبات والحقوق في الأرض التي يسكنها الإنسان ، وليس فقط الأرض التي ولد بها . فخير خلق الله محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله عندما فتح مكة لم يقل هذه هي الأرض التي نشأت وترعرعت فيها فهي مسكني وديارى ، بل رجع إلى المدينة حيث أسّس مجتمع المواطنة والتعامل الإنساني والأخلاق الفاضلة الذي يصلح أن يكون بيئة للحبّ وحُسن المعاملة . فالأرض كلها أرض الله للإنسان وليست أرض الإنسان ، كما أنّ المال هو مال الله للإنسان وليس مال الإنسان ، وما الإنسان إلا خليفة فيه . قال تعالى ﴿ . . . **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾[1] ولا يحقّ لأحد أن يحرم آخر من أن يختار من البقاع ما يناسبه ما لم يكن في ذلك تعد على حق . فالناس سواسية بغض النظر عن أعراقهم ومعتقداتهم . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**»[2] .

ويتجلى الكرم الإلهي في أنه سبحانه يكافئ الإنسان على إنفاقه مما أعطاه ورزقه إياه ، بل ويقترض منه وهو مستخلفه فيه

---

(١) سورة الحديد : ٧ .

(٢) البيهقي .

قال تعالى ﴿**مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . . .**﴾[1] مع أنّ الله سبحانه هو الغني المغني . وليس القصد من القرض الإلهي إلا مضاعفة القرض للذي اقترض منه ﴿ . . . **فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً . . .**﴾[2] .

وتبياناً لعظمة الأخلاق والمعاملات نجد أنّ القرض هنا إنما هو إعطاء لإنسان هو في حاجة لذلك العطاء ، فوصفه الله سبحانه بأنّه قرض لله ، ولم يقل قرضاً لإنسان تعظيماً لهذا الإنفاق وكريم المعاملة . وجاء في الحديث «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني . فقال : يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا بن آدم ، استسقيتك فلم تسقني . قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه؟ أما إنك لو سقيته لوجدت**

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٥ .

ذلك عندي»[1] وهذه إشارة لإكرام الله سبحانه لبني آدم ، وتبيين عظمة الأخلاق ، وأنّ الحبّ هو أصل في الخلق ؛ ففي الحديث فيما يرويه النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله عن ربّه «**أنا عند ظن عبدي بي . . . إن تقرّب إلي شبراً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته أهرول . . .**»[2] وعن لطفه سبحانه يقول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فآيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد آيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح**»[3] . قال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[4] .

---

(١) مسلم .

(٢) البخاري ومسلم .

(٣) البخاري ومسلم .

(٤) سورة الحديد : ٩ .

الرحمة المهداة

الحبّ هو السبب في إظهار هذا الوجود الذي صدر من إرادة الخالق العظيم فهو فعله ، وتعالى أن يكون في فعله إلا الكمال الذي لا يراه إلا كامل . ولا يوجد من بلغ من الكمال ما يؤهله لرؤية كمال فعل الخالق إلا من اختصه الله بذلك ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ . . .**﴾[1] والرحمة المجسّدة هي محمّد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لقوله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[2] وقال تعالى ﴿**. . . إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[3] وقوله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**أنما أنا رحمة مهداة**»[4] وقال تعالى ﴿**. . . وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . . .**﴾[5] فمحمّد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو الرحمة الواسعة

---

(١) سورة آل عمران : ٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) سورة الدخان : ٥-٦ .

(٤) الحاكم .

(٥) سورة الأعراف : ١٥٦ .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فهو خلاصة قمم النفوس جميعها ﴿. . . لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .﴾ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ . . .﴾ يخاطب الناس على قدر عقولهم ، بل وغير الناس من المخلوقات كمخاطبة البعير والجنّ والجذع والضبّ والحجر . وهو أعلم الناس بالله ، وبالتالي أعلم الناس بهذا الكون وما فيه ، وبالحياة الآخرة ، فمحمّد هو المجسد للحديث القدسي «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها**»[2] وتؤكده الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[3] ووصفه الله تعالى بأنه ﴿. . . رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4] وقال تعالى ﴿. . . لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[5] وهذه تزكية من الله لحبيبه . أما يوسف عليه السلام فقد وصف نفسه حين قال ﴿. . . إِنِّي حَفِيظٌ

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٢) البخاري .

(٣) سورة الفتح : ١٠ .

(٤) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٥) سورة الإسراء : ١ .

عَلِيمٌ﴾[1] ولا يقدح ذلك في قوله عليه السلام ، فلا تقول الأنبياء إلا صدقاً ، ولكن حينما تكون التزكية من الله فهي الأعظم ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . .﴾ .

فرؤية الإنسان لما لا يحبّ ناتجة عن نقصه لرؤية الكمال في فعل الخالق العظيم . ومحمد صلّى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو قمّة الحب الإلهي المجسّد . ولا بد للناس من رمز يتعين فيه الحبّ الإلهي ليكون مثلاً للإنسانية في التعامل الذي يريد الله للناس أن يكونوا عليه . فكانت الرسل عليهم السلام تلكم الرموز في الحب الإلهي وكلماته التامة ، ثم كان خاتمهم محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو عين ذلك التجلي الإلهي ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ . . .﴾[2] . ومن أحبه الله كان الله سمعه وبصره ويده ورجله . والحب مانع للوم المحبوب وقد قيل :

إنّ المحب وإن ذابت حشاشته

يهوى الحبيب ويهوى كل ما فعلا

وقد ظهر الحب من الخالق سبحانه وتجلى في محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بصورة أكمل -وكل تجليه كامل- ولكنه بالنسبة لنا أكمل مما كان في نار موسى عليه السلام

---

(١) سورة يوسف : ٥٥ .

(٢) سورة آل عمران : ٣١ .

لوجود النص بتكريم بني آدم . فالعبرة عندنا بالذي كان فيه التجلي . ولا شك في أفضلية محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . فقد قال فيه تعالى ﴿ . . . **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** . . .﴾[1] . . ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2] . . ﴿ . . . **إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[3] . . . وأظهر حبّه له في فعله فقال ﴿ . . . **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[4] وتجلت شدة الظهور في فعله في قوله تعالى ﴿ . . . **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** . . .)[5] فنفى عنه الرمي حين أثبته له ليبيّن أنّ رميه رمي الله . فاتضح الأمر لمن يرى ومن ألقى السمع وهو شهيد ، وبيّنه تعالى في قوله ﴿**مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه** . . .﴾[6] وبيّنه الحبيب في قوله تعالَى ﴿ . . . **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ** . . .﴾[7] فكيف يكون اللوم ممن أظهر هذا الحب لهذا الحبيب الأعظم في كلّ أفعاله . وقد نفى الله

---

(١) سورة الطور : ٤٨ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة الزخرف : ٤٣ .

(٤) سورة الشورى : ٥٢ .

(٥) سورة الأنفال : ١٧ .

(٦) سورة النساء : ٨٠ .

(٧) سورة الأحقاف : ٩ .

اللوم عن النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله قال تعالى ﴿ . . . **فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ** ﴾[1] .

وقد يصل الحبّ درجة يغيب فيها المحبّ عن نفسه في المحبوب كما قال البسطامي رضي الله عنه «سبحاني» وهذه أعلى درجة في تجلي الحبّ الإلهي ، ففي الحديث « . . . **فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه** . . .»[2] وقد ظهرت درجة التجلي هذه في عدد من أولياء الله كالبسطامي رضي الله عنه ، كما ذكرنا ، ولكنها ظهرت في محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بشهادة من الله سبحانه في قوله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** . . .﴾[3] . وهنا يتضح التجلي الأعظم بين شجرة نار موسى التي جاءه منها النداء ﴿ . . . **إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[4] وبين محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله الذي جاء منه القرآن

---

(١) سورة الذاريات : ٥٤ .

(٢) البخاري .

(٣) سورة الفتح : ١٠ .

(٤) سورة القصص : ٢٩-٣٠ .

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ . . .﴾[1] . ولا يعني تحيز التجلي الإلهي في الشجرة التي جاء منها النداء في أمر موسى عليه السلام ﴿ . . . إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2] لا يعني هذا التحيز عدم الإحاطة بكل شيء رغم الظهور بالتحيّز ، فالله سبحانه ﴿ . . . بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[3] . فلا يقيّده التحيّز لإحاطته ، ولا تقيده الإحاطة لقدرته ، فهو كما يريد ، وكيف يشاء ، تعالى عما يصفون ، وتنّزه عن تنزيه المخلوقين . فالقرآن كان عند محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله مجملاً قبل أن يأتيه الوحي . فهو حقّ من الحقّ سبحانه إلى محمد الحقّ ﴿ . . . وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ . . .﴾[4] .

أما جبريل عليه السلام إنّما هو الوحي الذي أُمِر محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ألا يصدر القرآن من عنده إلا بعد أن يقرأه عليه ﴿ . . . وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ من قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ . . .﴾[5] ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ

---

(١) سورة مريم : ٩٧ .

(٢) سورة القصص : ٣٠ .

(٣) سورة فصلت : ٥٤ .

(٤) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٥) سورة طه : ١١٤ .

بِهِ﴾[1] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[2] رغم أنّ القرآن أُنزل كلّه مجملاً على قلب محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[3] قبل مجيء الوحي إليه ؛ فكما أعطى الله سبحانه عيسى عليه السلام الكتاب وهو طفل رضيع ، كذلك أعطى الله سبحانه القرآن لمحمّد النبيّ قبل مجيء الوحي إليه ؛ وصلى عليه هو وملائكته ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . . .﴾[4] قبل اكتمال خلق آدم . وصلاة الله سبحانه ليست حادثة لأنّ الرسول حقّ كما قال تعالى ﴿ . . . وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ . . .﴾ والحقّ قديم ليس بحادث ولا ينقسم . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[5] ولم يقل كلنا لأنّه حقّ ، وقال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**لست كأحدكم . . .**»[6] أما قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . .﴾[7] إنّما هو

---

(١) سورة القيامة : ١٦ .

(٢) سورة القيامة : ١٨ .

(٣) سورة القدر : ١ .

(٤) سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٥) مسلم .

(٦) البخاري .

(٧) سورة الكهف : ١١٠ .

خطاب من الله لحفظ الناس للتعامل مع النبي بالبشرية ، لأنّه رسول الله إليهم ، فالآية تبيّن شكّ المخاطَبين بهذا القول لما رأوا فيه من سمّو فوق البشرية ، فقيل له ﴿**قُلْ** . . .﴾ ولم يقل سبحانه أنت بشر مثلهم ، أو محمد بشر مثلكم . بل قال تعالى ﴿**قُلْ** . . .﴾ ولا يحتاج بشر أن يقال له قل أنا بشر إلا إذا كان هناك ما يُشير إلى شكّ في بشريته يحتاج إلى التعريف . وبما أنّه حقّ وخلق فقد يُشكِل على من يرى فيه جانب الحقّ نسبته إلى البشرية ، فردّ الله سبحانه الناس إلى النظر إلى بشريته في التعامل معه . وهنا وقف أكثر الناس ولم يروا ولم يراعوا جانب الحقّ فيه ، فانطمست بصائرهم وظنّوا بشريته كبشريتهم . والله سبحانه لم يقل قل إنما أنا بشر مثل أحدكم بل قال ﴿ . . . **مِّثْلُكُمْ** . . .﴾ والرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله قال «**لست كأحدكم**» فلم يتدبروا ذلك . ورموا من يرى غير رؤيتهم المتدنية هذه بالجهل والغلوّ بل بالشِرك ، لكِبر في نفوسهم ودعوى عِلم فاسدة . ولم ينظروا إلى قول الله تعالى الذي يميّز نساء النبي عن بقية النساء . قال تعالى ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ** . . .﴾[1] فكيف يكون الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله مثل أحد من الناس؟

مقام النبيّ صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . **قَابَ**

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٢ .

قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[1] وجبريل لا يجاوز سدرة المنتهى **﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾**[2] فأُمِر محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بألا يصدر القرآن من عنده ولا يقرأه إلا بعد نزول الوحي إليه **﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ . . .﴾** لذلك حينما أتاه الوحي أول مرة وقال له إقرأ قال ما أنا بقارئ ، أي لن أقرأ حتى تقرأ أنت ، لأنّ جبريل لم يعطه كتاباً ليقرأ منه . فلا يعزى امتناعه عن القراءة لعدم معرفة قراءة الحروف . فقد قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لكاتب الوحي «**إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبيِّن السين**»[3] . ولا يعني طلب جبريل من محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله القراءة إلا أنّه إقرار وتبيين من جبريل لما عند محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله من القرآن . فامتناعه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله عن القراءة كان امتثالاً للأمر الإلهي ؛ لا لنقص علم بالكتاب أو ما يخصّ الكتاب . فوجب على جبريل القراءة أولاً فقرأ **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ . . .﴾**[4] . وكان الوحي يأتي إلى رسول

---

(١) سورة النجم : ٩ .

(٢) سورة الصافات : ١٦٤ .

(٣) ابن عساكر في تاريخه .

(٤) سورة العلق : ١ .

الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله في كلّ حادثة ليقرأ عليه تفصيلاً ما هو لديه إجمالاً أصلاً ، قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ . . .**﴾[1] وهو القرآن المفصّل الذي يأتي به جبريل من عند سدرة المنتهى ، التي هي منتهى الأرواح ليكون أقرب للأرواح في التلقي ، وليمكن الأخذ من القرآن الجبرائيلي المفصّل ، وهو الذكر المحدث قال تعالى ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾[2] ، وهو الفرقان المُنزَل للعالمين ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾[3] .

والرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله -لانتفاء الغلظة في طبعه- يناسبه التبشير في البلاغ بالرسالة ، فيجيء الوحي إليه لينذر من لا يستجيب بالتبشير ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾[4] وهو القول الثقيل المُلقى عليه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لأنه تفصيل وتفسير لما عنده مجملاً ﴿**جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ**

---

(١) سورة الأعراف : ٥٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢ .

(٣) سورة الفرقان : ١ .

(٤) سورة الشعراء : ١٩٣-١٩٤ .

﴿تَفْسِيرًا﴾[1] وفي هذا التفصيل يوجد الإنذار الذي يحتاج لنوع من الغلظة التي لا توجد في طبع محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، فيكون ثقيلاً عليه ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[2] وهو القرآن الذي يقرأه جبريل المنزّل للعباد إذ لا قِبل لهم بالأخذ من القرآن المجمل المحمّدي الذي كان من فوق السدرة في مقام قاب قوسين أو أدنى . فما كان من الله سبحانه فهو من الحقّ ونزل بمحمد الحقّ قال تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ . . .﴾[3] فالذي يصدر من محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو الحقّ المُخرج للعباد من الحقّ إلى الخلق ليأخذ كلّ امرئ قدر وسعه ، وهو ما يقرأه عليه جبريل عليه السلام . فمحمد هو البرزخ بين الحقّ والخلق أي أنه حقّ وخلق . فهو حقّ لقوله تعالى ﴿ . . . وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ . . .﴾ وهو خلق للقيام بتوصيل الرسالة للناس لأنّ الخلق لا يأخذون عن الحق إلا عن طريق رسله عليهم السلام .

ولا يعني مجيء الوحي إلى رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله أنّ القرآن لم يكن عنده قبل ذلك ، لأنّ الوحي لكلّ الرسل أمر تقتضيه استمرارية تبليغ الرسول

---

(١) سورة الفرقان : ٣٣ .

(٢) سورة المزمل : ٥ .

(٣) سورة الإسراء : ١٠٥ .

للرسالة . فالوحي ليس ابتداء العلاقة بين الله ورسله . فمحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله موجود قبل خلق آدم حين صلى عليه الله . وعيسى عليه السلام آتاه الله الكتاب وهو رضيع . وهذا يوضِّح أنّ الوحي هو ما يستصحب الرسالة لكلّ الرسل حين أداء الرسول لها ، وليس الوحي معلِّماً للنبيّ محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، ولا يرتقي إلى قدره ومقامه ، بل تجب عليه الصلاة على النبي . فالوحي مرسل بين الله ورسله لمهام يتطلبها الوقت في تأدية الرسالة كالأمر بالغلظة ﴿ . . . **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** . . . ﴾[1] والإنذار ﴿ . . . **لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ . ولذلك أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عيسى عليه السلام رغم أنه آتاه الكتاب وهو رضيع . قال تعالى ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾[2] . فماذا أوحى الله سبحانه إلى عيسى وقد آتاه الكتاب وهو رضيع؟ لا يعني ذلك إلا أنّ الوحي مهمته متابعة الرسالة مع الرسول لما يمكن أن يحدث من المرسل إليهم والتعامل معهم

---

(١) سورة التوبة : ٧٣ .

(٢) سورة النساء : ١٦٣ .

أثناء تأدية الرسول لها . ولا يعني الوحي ابتداء العلاقة بين الله ورسله . فلم يكن من مهام الوحي إلى عيسى عليه السلام إنزال الكتاب عليه فذلك أمر سبق نزول الوحي .

النّبي الأمّي

ذهب بعض المفسِّرين ورواة الحديث إلى أنّ امتناع النبي عن القراءة حينما أتاه الوحي هو لعدم معرفته بالقراءة والكتابة لأنّه أمّي ، ومنهم من يقول بذلك ليدلل على صحة أنّ القرآن من عند الله . وهذه حجّة باطلة لأنّ معرفة الكتابة أو عدمها لا علاقة لها بالقرآن الذي يمليه محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله على كُتّاب الوحي . فالإملاء لا يحتاج أن يكون الذي يُملي عالماً بالقراءة والكتابة ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ**﴾[1] . ولا أرى سبباً للإصرار على أنّ رسول الله لا يعرف القراءة والكتابة غير قصد الانتقاص من عِلم النبي والعياذ بالله . ولا أرى من زاد في الاستكبار على فرعون إلا من يزعم أنّ هناك من العلوم ما لم يُعلِّمه الله لرسوله!! والله سبحانه يقول ﴿ . . . **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** . . .﴾[2] فهل القراءة والكتابة ليست بشيء؟

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٩ .

(٢) سورة الأنعام : ٣٨ .

لقد استند من ادّعى ذلك التفسير وانتقاصه علم النبيّ بالقراءة والكتابة إلى قوله تعالى ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[1] وهذا قول حق ولكنه لا يعني ما ذهبوا إليه ، إنما يعني أنّ الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لم يكن يقرأ في كتب الرسل السابقين ، ولم يكتب منها شيئاً ، وإلا لقال الناس هذا ما كان يقرأه ويكتبه من كتب الرسل السابقين قبله . والادعاء بأنّ الرسول لا يعرف القراءة والكتابة لأنّه لم يدرس ذلك على يد مُعلِّم ، هو إنكار للقدرة الإلهية التي لا تحكمها الأسباب ، ولا يحيط بها العقل البشري ؛ لأنّ الله سبحانه يتصرّف في ملكه بإرادة وعِلم لا بعقل ، فهو العليم واهب العقول جلّ شأنه . فكونه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لم يتعلم القراءة والكتابة لدى معلِّم ، فهذا شأن الله في رسله حتى لا يكون لهم معلِّم غيره سبحانه . فمن الذي علّم عيسى عليه السلام القراءة والكتابة بعد أن أوتي الكتاب وهو رضيع؟ ومن علّم موسى عليه السلام القراءة والكتابة قبل أن يُعطى الألواح؟ إنّ ما يجب أن يقوله صاحب الأدب مع رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله إن كان مؤمناً -لأنّ الإيمان شرطه حبّ النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله- هو أنّ النبي لم يتعلم

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ .

القـراءة والكتـابة على يد أحـد من النـاس ، حـتى لا يكون له معلِّم غير الله سبحانه . فالله سبحانه يقول ﴿ . . . **وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّـهُ** . . . ﴾(١) وقـد يُعطي الله العِلم من لدنه لغـيـر الرسل . والرسـول صلى الله وبارك عليـه ووالـديه وآله هو الذي أشـرف على كـتـابة المصـحف ، فكيف يكون جـاهلاً بالـقـراءة والكتابة وكُتّاب الوحي قد يخطئون! فمن يصحّح لهم خطأهم إذا أخطأوا وهو الذي يعلِّمـهم الكتـاب؟ قال تعـالى ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّـيِّينَ رَسُـولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْـهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّـيـهِمْ وَيُعَلِّمُـهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْـمَـةَ وَإِن كَـانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَـلالٍ مُّـبِينٍ**﴾(٢) . ولقـد قـال صلى الله وبارك عليـه ووالديه وآله «**لا أقـول الم حـرف بل ألف حـرف ولام حـرف وميـم حـرف**»(٣) وهي إشارة إلى معرفته بالكتابة ، وقد قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لكاتب الوحي «**إذا كـتـبت بسم الله الرحـمن الرحيم فبيِّن السين**» وقد جاء في قوله تعالى ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾(٤) فهذه الآية تشير إلى عِلم الكفّار بمعرفة النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه

(١) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٢) سورة الجمعة : ٢ .

(٣) الترمذي .

(٤) سورة الفرقان : ٥ .

وآله للقراءة والكتابة وإن لم يكن له معلِّم .

أما كونه أمياً فإنّ الأميين هم الأمّة التي لم ينزل عليها كتاب . فكان أهل الكتاب يقولون للعرب ﴿ . . . **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** . . .﴾[1] فبعث محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله في الأميين ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾ أما بعد نزول القرآن إليهم فلم يعُد يُدعون بالأميين ، ولا يُدعون بأهل كتاب ، حتى لا تختلط تسميتهم بمن سبقهم من أهل الكتاب من الأمم ، فخاطبهم القرآن بـ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** . . .﴾[2] وليس يا أيها المسلمون ولا يا أيها الذين أسلموا . ولا تعني مخاطبتهم بالذين آمنوا أنّهم المؤمنون . إنما هي تسمية فقط تميزهم عن الذين هادوا والنصارى للمخاطبة ، قال تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ** . . .﴾[3] .

أما المؤمنون فهم الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر وعملوا الصالحات . وبيّن سبحانه الفرق بين المؤمنين والذين

---

(١) سورة آل عمران : ٧٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٠٤ .

(٣) سورة البقرة : ٦٢ .

آمنوا في قوله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . . .**﴾[1] فطلب من الذين آمنوا الإيمان بالله ورسوله وقال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ . . .**﴾[2] فعلى الذين آمنوا أن يؤمنوا برسول الله وقال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . . .**﴾[3] . فالذين آمنوا هم المخاطبون ، والمطلوب منهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا برسول الله ويتقوا الله ويتوبوا ويكونوا مسلمين .

قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . . .**»[4] قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[5] وبعد أن يكون هؤلاء الذين آمنوا مسلمين -ولا يعني ذلك أنهم مؤمنون- فعليهم بعد ذلك الترقّي ليكونوا مؤمنين ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ**

---

(١) سورة النساء : ١٣٦ .

(٢) سورة الحديد : ٢٨ .

(٣) سورة التحريم : ٨ .

(٤) أحمد .

(٥) سورة آل عمران : ١٠٢ .

الإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . . .﴾[1] قال تعالى **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ . . .﴾**[2] . والأمّيون هم الذين لم يكن لديهم كتاب كما ذكرنا ، وهم الأعراب قال تعالى **﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾**[3] . فلما أُنزل إليهم الكتاب -أي القرآن- سمّاهم «الذين آمنوا» وليس أهل الكتاب ، حتى لا تختلط تسمية أمم المرسلين . لأنّ اليهود والنصارى بعدما أنزلت إليهم التوراة والإنجيل أصبحوا يُدعون بأهل الكتاب . ولم يخاطبهم بـ يا أيها المسلمون ، لأنّ كل من آمن برسوله من الأمم السابقة فهو مسلم . فلا يحتكر **﴿ . . . الَّذِينَ آمَنُوا . . .﴾** اسم المسلمين دون غيرهم ليصفوا غيرهم بغير الإسلام ويحكموا عليهم بالكفر . فالله سبحانه طلب من الذين آمنوا الإيمان بالله ورسوله **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . . .﴾** .

قال تعالى **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ . . .﴾**[4] فهل ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام من الدين في التوراة والإنجيل لن يُقبل منهم؟! أم أنه الدين من

---

(١) سورة الحجرات : ١٤ .

(٢) سورة االحجرات : ١٥ .

(٣) سورة يس : ٦ .

(٤) سورة آل عمران : ٨٥ .

عند الله الذي هو الإسلام كما قال تعالى ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ . . .**﴾[1] وهو ما جاء به الرسل عليهم السلام ﴿ . . . **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ . . .**﴾ فجاء كتاب محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله مصدِّقاً ومبيّناً لما جاءوا به ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . .**﴾[2] ﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا . . .**﴾[3] أما قوله تعالى ﴿ . . . **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا . . .**﴾[4] لا يعني أنّ اسم المسلمين حصري على من أُرسِل إليهم محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لقوله تعالى ﴿ . . . **مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا . . .**﴾ . فقد قال تعالى في خطاب موسى عليه السلام لقومه ﴿ . . . **فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾[5] وقال تعالى عن قوم لوط عليه السلام ﴿**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[6] وقال الحواريون ﴿ . . . **وَاشْهَدْ بِأَنَّا**

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة الجاثية : ٢٨ .

(٤) سورة الحج : ٧٨ .

(٥) سورة يونس : ٨٤ .

(٦) سورة الذاريات : ٣٦ .

مُسْلِمُونَ﴾[1] وقال سحرة فرعون ﴿ . . . رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[2] فهؤلاء مسلمون من قبل . فالذين آمنوا هم الذين بُعث فيهم محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، وطُلب منهم الإيمان به . وطُلب منهم كما طُلب من الأمم الأخرى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] . وطُلب من الذين آمنوا أن يكونوا مسلمين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ . لأنّهم أمّة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، ومن يؤمن به يكن من المسلمين ، ومحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو أوّل المسلمين كما جاء في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[4] وبما أنه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو أول الأنبياء فهو أول المسلمين . قال تعالى

---

(١) سورة آل عمران : ٥٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٢٦ .

(٣) سورة البقرة : ٦٢ .

(٤) سورة الأنعام : ١٦٢-١٦٣ .

﴿ . . . **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا** . . .﴾ وهذا يعني أنّ كلّ نبيّ مسلم ، وبهذا يكون أول الأنبياء هو أول المسلمين ، وقد جاء عنه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد**»[1] لأنّه حقّ قال تعالى ﴿ . . . **وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . . .﴾ ولم تكن صلاة الله عليه بعد بعثته ، بل صلى عليه وهو نبيّ وآدم بين الروح والجسد ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** . . .﴾ . فكونه أول المسلمين فلا يقتصر ذلك على زمن بعثته .

قال تعالى ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2] . وبما أنّ التوراة والإنجيل أُنزلت من بعد إبراهيم عليه السلام فلا يعني وصفه بأنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً إلا دلالة على وحدة الدين ووجوب الابتعاد عن التحزب والتفرقة بين الرسل كما جاء من بعض أتباع المرسلين الذي أثبته سبحانه في قوله ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ** . . .﴾[3] فكان إبراهيم حنيفاً مسلماً كما

---

(١) الحاكم في المستدرك .

(٢) سورة آل عمران : ٦٧ .

(٣) سورة البقرة : ١١٣ .

قال تعالى ﴿ . . . وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا يدل ذلك على أنه أول المسلمين بل يدل على وحدة الدين . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**الأنبياء إخوة ، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد**» .

أمّا أول المؤمنين فهو موسى عليه السلام الذي طلب الرؤية من ربّه قال تعالى ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1] فلمّا أفاق موسى عليه السلام من التجلّي الذي حصل ، أدرك أنّ هذا المقام ليس هو مقام أداء رسالته ، فقد كان لموسى مقام التكليم في رسالته ، قال تعالى ﴿ . . . **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾[2] . فالجبل لم يتحمّل التجلّي ، وقد تحمّل محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ما لم يتحمّله الجبل ، قال تعالى ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[3] . فالمضروب له المثل في هذه الآية

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٢) سورة النساء : ١٦٤ .

(٣) سورة الحشر : ٢١ .

غير مذكور لعظمته وهو محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، فهو الذي أُنزِل عليه القرآن . فآمن موسى بمحمد -الذي أُخِذ على النبيين العهد بالإيمان به- وطلب عليه السلام من ربه أن يجعله من أمة محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله كما جاء في الحديث «أنّ موسى عليه السلام قال : اللهم اجعلني من أمة أحمد»[1] .

(١) تفسير الطبري .

لا حبّ لناقد

يتخطّى بعض من ادّعوا العِلم والتفسير حدودهم ليتكلموا فيما يكون بين الله ورسوله ولم يكن تشريعاً للناس . والكلام بين الأحباب له فهم خاص بهم ، وله طعم لا يذوقه غيرهم ومن هو خارج دائرتهم ، فإذا تدخّل أحد غيرهم وتطاول إلى تفسيره دخل في المحظور ، وما ينبغي له . فما كان بين الله سبحانه ومحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، لا دخل للناس فيه بإدخال فهمهم في هذه المخاطبة ومحاولة تفسيرها بما لا يليق ، بل لهم ما يخصهم في اتباع ما يشرعه لهم محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . فحشر الأنوف هنا بما لا يليق ما هو إلا سوء الأدب والتدخل فيما لا يعني . والحبّ بين الله ورسوله له من العظمة ما لا تحيط به العقول البشرية .

أقول ما كان بين الحبيب وحبيبه فلا شأن للناس فيه . فهل من يعتقد أنّ محمداً رسول الله يشكّ في أنّ محمداً حبيب الله؟ إنّ الذي يدّعي العِلم وتفسير كلام الله دون مراعاة محبة الله للنبي ، منتقداً للنبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بما يراه من خطاب الله لحبيبه فقد هلك ، لانتفاء الحب عن الناقد . فإنّ من ينتقد شيئاً استحال حبه له لأنّ الناقد يرى في

نفسه رؤية الكمال الذي انتقص عند الآخر . والحبّ لا يكون إلا برؤية الكمال في المحبوب . وبما أنّ حبّ النبي هو شرط الإيمان ، فالمنتقد له صلّى الله وبارك عليه ووالديه وآله خرج بذلك من الإيمان ، قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده**» . ومن فقد الإيمان فلا يرجو شيئاً من صلاته وصيامه وحجّه وزكاته . فالقرآن جاء بلسان عربي لا يحتاج لتفسير لعربي ﴿ . . . **جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾[1] فهو للتدبر وليس للتفسير لعربي ، إنما التفسير لمن ليس لسانه عربياً ، أما أصحاب اللسان العربي ﴿ . . . **لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِه** . . . ﴾[2] قال تعالى ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾[3] . ومفتاح أقفال القلوب هو الصلاة على النبي لأنها ذكر الله والملائكة . والله ذاكره في كلّ أحواله مصلياً عليه ، وليس في قلب النبي سوى الله . وكلّ الأعمال بين الردّ والقبول إلا الصلاة على محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لأنّه حبيب الله ، والله يصلي على من يصلي على النبي عشرة أضعاف ، ويرفعه عشر درجات في كل صلاة ، ويغفر له عشر سيئات .

---

(١) سورة الفرقان : ٣٣ .

(٢) سورة ص : ٢٩ .

(٣) سورة محمد : ٢٤ .

ومن يدّعي العِلم وينفي العصمة عن النبي وفعله ويقول إنّ الله عاتبه من حيث أنه نبيّ لا عصمة له إلا في الرسالة مستنداً إلى قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ . . .**﴾[1] فقد اجتهد أسوأ اجتهاد ليثبت اللوم على النبي الذي مدحه الله وصلى عليه . وغاب عنه الحبّ بين الله سبحانه ومحمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، وغاب عنه أنّ الله سبحانه صلى على النبيّ محمد وآدم بين الروح والجسد . فسيءُ الاجتهاد هذا انصب فكره القاصر على محاولة إثبات اللوم على محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، ففكر في فصل الرسالة عن النبوّة من أجل ذلك ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ . . .**﴾ فنسب اللوم لمحمّد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله في كونه نبياً لا رسولاً!! والله سبحانه ينفي عنه اللوم في قوله ﴿ . . . **فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ**﴾ . وهذا النوع من الاجتهاد هو ديدن أكثر المفسرين ومن أضلهمَ الله على علم ؛ ويبين فهمهم المنحرف عن معرفة الحبّ ولغته ، فيرون في لغة الملاطفة القسوة . وكلّ من يدّعي تفسير القرآن بغير رؤية حبّ الله لنبيه فهو جاهل منحرف عن القصد ، أو يقصد التقليل من القدر المحمدي الشريف .

فمن يك ذا فم مرٍّ مريض
يذق مرّاً به الماء الزلالا

---

(١) سورة التحريم : ١ .

والمتدبر لقوله تعالى يجد فيه عظمة الحبّ في المخاطبة ، وليس الغلظة كما يرى أصحاب القلوب القاسية والبصائر المنطمسة . فالله سبحانه لا يريد من حبيبه أن يقسو على ذاته الشريفة بتحريم ما أحلّ له من الطيبات من أجل مرضاة زوجات لم يحفظن حرمته وسره وعملن للتظاهر عليه . قال تعالى ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا . . .**﴾[1] ولكنها لم تحفظ سرّ النبوة ، وأفشته ونبأت به أهليها وأقرب الناس إليها . وإفشاء السر هو أقبح السلوك وخيانة لمن أسرّ به . وهو عند الملوك جزاؤه القتل فكيف بإفشاء سر النبوة؟ ﴿ . . . **فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ** . . .﴾[2] وأفشته أظهره الله عليه ونبأه بما فعلت فسألها النبي عن سبب إفشائها ما أودعها إياه من السر ، ولماذا قامت بذلك الفعل ﴿ . . . **فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ** . . .﴾[3] لم تُقِر بالذي فعلت ولم تبد اعتذارها لرسول الله بل طالبته بالبينة على أنّها فعلت ذلك!! وإنها لكبيرة أن تُطلب البينة من رسول الله فيما يقول ﴿ . . . **قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا** . . .﴾[4] وهو سؤال لا يليق أن يقال لنبي الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ممن يعلم أنه رسول الله

---

(١) سورة التحريم : ٣ .

(٢) سورة التحريم : ٣ .

(٣) سورة التحريم : ٣ .

(٤) سورة التحريم : ٣ .

وما ينطق عن الهوى!! وطلب البينة من رسول الله فيما يقول لا يكون إلا ممن يشكّ في رسالته أو يجهل علاقته بمن أرسله . فأجابها بسموّ أخلاقه وحلمه ولطفه ﴿ . . . **قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[1] . ولم يقف الأمر عند إفشاء السرّ من زوجاته بل تعداه إلى إعدادهن للتظاهر عليه!!! إنه أمر يعجز العقل عن التفكير فيه! إذ كيف يُتَصوّر أنّ إنساناً يسكن مع النبي تحت سقف واحد يمكن أن يتظاهر عليه وهو يعلم أنه رسول الله؟ فما لبث حتى جاءهن الإنذار الإلهي بالإعداد الذي لا قِبل للعالم به لهذه التظاهرة ، ليعلم الناس كيف يكون الإعداد والحكم على من يتظاهر ضدّ رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ﴿ . . . **وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[2] وليس الإعداد للتظاهرة هذه بهذه الكيفية العظيمة دلالة على قوة المتظاهرين فيها ، بل لإظهار عظمة من كانت التظاهرة ضده ، ومدى محبّة الله له ومواجهة كلّ من يهم بإيذائه بقوةٍ لا قِبل للكون كله بها ، مهما قلّ حجم الأذية ومهما كانت مكانة الذي ينوي الأذى للحبيب صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . ويمتد الإنذار الإلهي على من أفشين لهم السر ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) سورة التحريم : ٣ .

(٢) سورة التحريم : ٤ .

قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] ويطلب منهم التوبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . . .﴾[2] وخصص لهن قبل ذلك الإنذار ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ . . .﴾[3] فكان الخطاب الإلهي للنبي بهذا الود واللطف ﴿ . . . لِمَ تُحَرِّمُ . . .﴾ . وما ذاك إلا لعظمة حلمه وكريم أخلاقه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، وأنّه رحمة مهداة يعفو عمن ظلمه ويحسن إلى من أساء إليه . فما كان الخطاب الإلهي له بهذه الغاية من الرقّة واللطف ، إلا مقابل ما كان منه من حلم عظيم رغم تصرُّف أزواجه معه . ولا يمكن أن يكون السؤال قُصِد به التقريع لأنه لا يخصّ أمراً خارج ذاته الشريفة أو تقصيراً في أداء الرسالة ، فهو قد تنازل عن أمر محبّب إليه يخصّه ، لذلك جاء الخطاب الإلهي له مؤانساً ليرفق بنفسه الشريفة وليس إنكاراً أو تقريعاً . وفرض عليه تحلة أيمانه لأنّ زوجاته لا يستحقن أن يحرِّم نفسه الشريفة شيئاً

---

(١) سورة التحريم : ٦ .

(٢) سورة التحريم : ٨ .

(٣) سورة التحريم : ٥ .

محبباً إليه من أجل مرضاتهن . ثم ذكر سبحانه ما فعلن ليظهر بوضوح ما يوجب تحلة الأيمان للذات الشريفة المعظمة عند الله فوق كلّ عظيم فقد قال له سبحانه ﴿ . . . **لَعَلَّكَ تَرْضَى** ﴾[1] . ولا يمكن أن يكون في الأمر لوم للنبي ولا تنبيه ، إذ إنّ السورة كلّها توضح ما كان من إفشاء سر النبوة ، وطلب البيّنة فيما يقول النبيّ ، والتظاهر ضدّ حبيب الله من أقرب الناس إليه ، وتصرفه الحليم مقابل ذلك .

ولقد قام كثير من المفسرين بتحسين صورة أزواجه رضي الله عنهن حفاظاً على صورة بيت النبوة ، واستندوا إلى قوله تعالى ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ** . . .﴾[2] ولكنّ الأمر حينما يتعلق بالنبوة فلا اعتبار لغير الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . ويجب توضيح خطأ من أخطأ في حقّه ، مهما كانت مكانته ، حتى لا تنتقص رؤية قدر الذات الشريفة . ولا حرمة لغيره مع حرمته . وضرب الله مثلاً لما كان من خيانة على أنبيائه نوح ولوط عليهما السلام من زوجتيهما ، حتى لا يبرر الخطأ في حقّ رسله فكانتا من الخبيثات ، وحاشا رسل الله من ذلك الوصف ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ**

---

(١) سورة طه : ١٣٠ .

(٢) سورة النور : ٢٦ .

فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾[1] .

وفرض الله سبحانه للنبيّ تحلة الأيمان فرضاً عليه كي لا يقسو على نفسه الحبيبة ، حتى لو كان ذلك من أجل الرسالة نفسها قال تعالى **﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾**[2] فلا ينبغي أن يحرّم نفسه مما أحلّ الله له من أجل زوجات لم يراعين حرمته ، ولم يحفظن سرّه ، وطالبن بالبينة منه فيما يقول ، بل وفكرن في التظاهر عليه!! فما كانت الرسالة إليه إلا تشريفاً لا تكليفاً فلقد سعت الإرادة الإلهية لإرضائه في أداء الرسالة قال تعالى : **﴿ . . . وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾**[3] . وما كانت الرسالة إلا البلاغ ، ولم يكلفه الله سبحانه بالهداية في الرسالة قال تعالى **﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . . .﴾**[4] فكان سبحانه وتعالى وكيلاً عنه في هداية الخلق **﴿ . . . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ . . .﴾**[5] قال تعالى **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ**

---

(١) سورة التحريم : ١٠ .

(٢) سورة طه : ٢ .

(٣) سورة طه : ١٣٠ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(٥) سورة البقرة : ٢٧٢ .

وَكِيلاً﴾[1] فالله سبحانه أرسله ولم يكلفه غير البلاغ ، وقام عنه وكيلاً في الهداية وفي كل شيء حتى قال له ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ . . .**﴾[2] قال تعالى ﴿**إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ . . .**﴾[3] ﴿**فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ . . .**﴾[4] وقال تعالى له ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾[5] فهل يرضى أن يكون أبواه في النار؟

والتفريق بين الرسالة والنبوة في محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله من أجل الانتقاد ، هو من ضلالة العلم لأنّ محمداً حق . «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**»[6] . قال تعالى ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ . . .**﴾[7] وصلى عليه الله قبل تسوية خلق آدم ، وهو من نور وجه الله كما جاء في الحديث «**أنا من نور وجه**

---

(١) سورة الفرقان : ٤٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٢٨ .

(٣) سورة النحل : ٣٧ .

(٤) سورة فاطر : ٨ .

(٥) سورة الضحى : ٥ .

(٦) البخاري ومسلم .

(٧) سورة آل عمران : ٨٦ .

الله»[1] لأنه حقّ والنور لا يتجزأ قال تعالى ﴿ . . . **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾[2] وما كان لرسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله في ء -أي ظل[3] وهذا يدل على أنه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله حقّ كما قال تعالى في محكم تنزيله ؛ وأنّه نور كما جاء في الحديث ، ومن نوره كان العرش والكرسي والأملاك . ولقد تحسّر الله على العباد في عدم معرفتهم لرسله ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾[4] . ولا يكون الاستهزاء إلا من المستكبرين الذين لا يريدون أن يتميز عليهم رسل الله بصفات خصّهم الله بها جعلتهم على قمة البشرية .

إنّ الاجتهاد في تفسير ما بين الله ورسوله أمر لا شأن للعباد فيه . فهو خطاب بين حبيب وحبيبه ، ومن يحشر نفسه ويتدخّل بالشرح في خطاب بين حبيبين فهو أجهل الناس ، إلا أن تكون محاولة منه لشرح عظمة الحبّ . ولا يحقّ لأحد أن يدّعي العلم ويحاول أن يوضح ويشرح للناس خطاباً بين الله ورسوله في أمر بينهما ليس المقصود منه تشريعاً للناس . ولا

---

(١) الأنوار المحمدية للنبهاني .

(٢) سورة المائدة : ١٥ .

(٣) كشف القناع للبهوتي الحنبلي .

(٤) سورة يس : ٣٠ .

يوجد في الكون من يقدِّر حبّ الله لرسوله وحبّ النبي لربّه . فلا ينبغي حشر الأنوف فيما يكون بينهما من كلام ليس للعباد فيه شأن إلا إذا كان القصد منه محاولة تعريف أو شرح للحب .

ومن المدح الجميل قوله تعالى ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ** . . .﴾[1] وهذا من عظيم المدح للنبيّ صلّى الله وبارك عليه ووالديه وآله لسموّ أخلاقه التي يقصر العقل عن معرفة جزء منها . فالذين طلبوا الإذن منه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله كان فيهم من قال الله إنهم يكذبون على رسول الله في طلب الإذن ليأذن لهم . ولعظمة أخلاقه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لا يدقق في أمر من طلب الإذن منه ، فقد يكون في ذلك فضح أمره لعدم صدقه وكذبه فيما قدَّمه من طلب الإذن ، والرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، وهو الرحمة المهداة ، لا يحبّ أن يرى من أصحابه إلا فضائلهم ، ويتغاضى عن سيئاتهم . وقد كانوا يتركونه أحياناً وهو قائم في المسجد ليصلّي بهم ويخرجون للّهو والغناء مع الجواري خارج المسجد ، وكذلك يفعلون حينما يرون الزيت القادم به دحية في تجارته من الشام ، فلم يعاتبهم على ذلك . فأنزل الله تعالى ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا**

---

(١) سورة التوبة : ٤٣ .

عندَ اللَّه خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ . . .﴾[1] فبلغ من حُسن الخُلق وعظمته ما مدحه به خالقه سبحانه وتعالى **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**[2] . فأذن لكلّ من طلب الإذن منه من أصحابه ، صادقاً كان أو كاذباً ، لعلو أخلاقه . فجاء الخطاب الإلهي مؤكداً سموّ الأخلاق وعظمة الحِلم المحمدي لستره على الكاذبين ، فكان بداية الخطاب الإلهي **﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ . . .﴾** قبل الدخول في الموضوع الذي تجلت فيه عظمة الأخلاق المحمدية بإعطاء الإذن لأصحابه دون التعرُّض لفحص سبب طلب الإذن الذي قد يفضح طالبه بالكذب وعدم الصدق . **﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾**[3] . فليس المقصود من الآية معاتبة رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، بل توضيح أنّ هناك من كان يكذب على رسول الله في طلبه الإذن منه . فيجب أن لا ينحرف التفسير في المعنى إلى عتاب النبي لأنّ المقصود هو مؤاخذة من كان يكذب على رسول الله ممن حوله . فالمُراد هو توضيح عظمة أخلاق النبي مع من لا يستحقون سِتره ، فبدأ سبحانه الآية بإظهار عظمة فعله صلى الله وبارك عليه ووالديه

---

(١) سورة الجمعة : ١١ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة التوبة : ٤٣ .

وآله في الستر على من كان يكذب عليه . وأما الذين في قلوبهم مرض يحرِّفون الكلِم عن مواضعه ، فبدلاً عن إظهارهم الخُلق المحمدي وحرصه على ستر من يكذب عليه ، وإظهارهم فعل الكاذبين ، تجدهم يحرِّفون المعنى كأن النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله هو المقصود بالعتاب في الآية ، يقصدون بذلك ستر الصحابة رضي الله عنهم . وإنها لكبيرة أن يكون القصد التستر على من كان يكذب على رسول الله وتحوير المقصود من الآية لجعلها اتهاماً لرسول الله .

وهذه شبيهة بقوله تعالى ﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً**﴾[1] إذ إنّه صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله خُلق غير متصف بالغلظة ﴿ . . . **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** . . .﴾[2] ، ولذلك كان يؤمر بها عند الحاجة إليها ﴿ . . . **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** . . .﴾ فكان ديدنه الرفق والتبشير ، فخفضَ جناحه وليّن أمره في دعوة المشركين ، لعدم وجود غلظة في طبعه ، حتى جاءه الأمر بأن يكون نذيراً أيضاً وليس بشيراً فقط كما هو طبعه الذي فُطِر عليه ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ**﴾[3] فهو متدثر بالأخلاق العظيمة التي

---

(١) سورة الإسراء : ٧٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٣) سورة المدثر : ١-٢ .

تنعدم فيها الغلظة ، وليس الإشارة إلى ملابس كما جاء في بعض التفاسير ؛ تعالى من وصفه بالأخلاق العظيمة أن يصفه بكثرة الأغطية . فجاءه الأمر بالإنذار مع التبشير ﴿ . . . **شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِه وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾[1] فكان قول الله لحبيبه ﴿ . . . **لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾[2] ولم يقل «لركنت إليهم» وهذا أيضاً ليس لمن ادّعوا التفسير حقّ الخوض فيه بما يخالف حبّ الله لرسوله لأنه ليس تشريعاً للعباد ، إنما هو أمر بين الله ورسوله . وهو يؤكد – لمن أراد أن يتدبر– عظمة الأخلاق المحمدية والرفق بالعباد المعرضين الرافضين . فالخطاب الإلهي كان ﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ** . . .﴾ فالله سبحانه يعلم أنّ حبيبه ليس فظاً غليظ القلب ؛ فدعوته للمشركين بالتبشير مع وجود القسوة في طباعهم ، ما كانت لتجد القبول عندهم ، ولا يأبهون بأهميتها ولا يستجيبون له صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ؛ وهو بلين طبعه لم تغير دعوته بالتبشير وحده كثيراً في سلوكهم لأنّهم أشدّ كفراً ونفاقاً ، فكان لا بدّ من تدخُّل المعية الإلهية لتشديد صيغة الدعوة لهؤلاء القساة ، فهم كما قال تعالى ﴿ . . . **أَشَدُّ كُفْرًا**

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٥-٤٦ .

(٢) سورة الإسراء : ٧٤ .

وَنِفَاقًا . . .﴾[1] ممن سبقهم من الأمم كعاد وثمود وقوم نوح ﴿ . . . **وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ . . .﴾**[2] . فالله معه ، وما أرسله وتركه ؛ بل بلغ من معيّته أن جعل رميه رميه . فثبته سبحانه على ما أرسله به ليكون نذيراً أيضاً . فما كان يتركه ليتصرف بغير معيته ﴿ . . . **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ . . .﴾**[3] فصار بشيراً ونذيراً بمعية الله . فالآية ﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ . . .﴾** لا تدلّ فقط على مدى الرقة والرحمة وعدم الغلظة في الخُلق المحمدي في تعامله مع المشركين ؛ بل تدلّ أيضاً على المعية والحبّ والعناية الإلهية في كلّ فعله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله . فهؤلاء القوم لا يستحقون أكثر مما كان من النبي من اللطف والرقة وسموّ الأخلاق في دعوته إياهم ، حتى قال الله سبحانه ﴿ . . . **لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾** من شدة اللطف في التعامل ، فكان التثبيت بالمعية الإلهية أمراً لازماً لتنبيه المشركين بالإنذار ، لعدم تقديرهم للطف الدعوة من الرحمة المهداة . والرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله يحبّ الخير للناس جميعاً ، فكان يُجهِد نفسه لإسعادهم حتى يقول له سبحانه

---

(١) سورة التوبة : ٩٧ .

(٢) سورة التوبة : ٩٧ .

(٣) سورة الأحقاف : ٩ .

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1] وكذلك يقول له ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[2] ويقول أيضاً ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[3] ﴿ . . . فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ . . .﴾[4] . اللهم صلّ على من وسعك قلبه الشريف ووالديه وآله الذي قال فيما جاء عنك «**ما وسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب المؤمن**»[5] .

---

(١) سورة االشعراء : ٣ .

(٢) سورة الكهف : ٦ .

(٣) سورة طه : ٢ .

(٤) سورة فاطر : ٨ .

(٥) إحياء علوم الدين للغزالي .

العداوة

إذا علمنا أنّ الحبّ هو الأصل في وجود الكون فعلينا معرفة وتبيين العداوة . فالعداوة هي فعل ناتج عن الكراهية بقصد الأذى . قال تعالى ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّه وَمَلَائكَته وَرُسُله وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾[1] والعداوة بين المخلوقين يمكن تقديرها وفهمها لوجود المناسبة والتساوي في الخَلق . أما بين الله وعبد من عباده فيصعب تقديرها لعدم المناسبة في التساوي بين الخالق والمخلوق . وكذلك الأمر في تسبيب الأذى ؛ إذ كيف يمكن للعبد أن يؤذي الله سبحانه؟ قال تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . .**﴾[2] ويستحيل للعبد أن يؤذي الله سبحانه كفاحاً . وعليه فلا تكون الإذية لله إلا لحبيب الله في خلقه . فإذية حبيبه هي إذيته تعالى . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**أيها الناس لا تسبوا علياً فمن سب علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب الله**»[3]

---

(١) سورة البقرة : ٩٨ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٣) حلية الأولياء ج١ ص ٦٨ .

لذلك لا تكون العداوة من الله إلا عن طريق عبد من عباده يحبه الله . فالعداوة له أو منه تعالى تكون هي عداوة لله في محبوبه أو من الله لعدو محبوبه . وعليه فالعداوة محصورة في المخلوقين . قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**يا فاطم إنّ الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك**»[1] وبهذا يكون الحب هو الأساس والمقياس للمعاملة بين المخلوقين وخالقهم . وإذا كانت عداوة الله لا تكون إلا عن طريق معاداة حبيبه ، فإنّ من يحبّ حبيب الله فقد استدعى محبّة الله ، وهذا هو العمل الذي يكون لله سبحانه . فالعبادات كالصلاة والزكاة والزهد والانقطاع إلى الله ، كل ذلك عائد إلى العبد ، أما العمل الذي يكون لله يقول فيه سبحانه كما جاء في الحديث «**هل واليت لي ولياً أو عاديت لي عدواً**»[2]؟ فالعمل الذي هو لله يختلف عن العمل الذي للعبد ، فالذي يعود للعبد هو ما يتقرّب به العبد إلى الله وهو العبادات التي فرضها الله عليه لحُسن السلوك ، أما العمل الذي لله فهو حبّ حبيبه وعداوة عدوه وهو من النوافل . فحبّ الله للعبد يكون حينما يتقرب العبد إليه بالنوافل . فالفرائض هي أحب ما يتقرب به العبد إلى الله . أما التقرب إلى الله بالنوافل ، هو الذي يجلب حب الله للعبد .

---

(١) الحاكم .

(٢) التمهيد لابن عبد البر .

ففي الحديث القدسي «**ما تقرب إلي عبد بأحب مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها**»[1] ومحال أن تكون محبة الله لمن يؤذي أو يلوم أو ينتقد حبيبه أو ولياً من أوليائه ، ففي الحديث القدسي «**من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»[2] . وكاذب من يدّعي محبة الله دون محبة حبيبه ورؤية الكمال في ذاته الشريفة ، وخسِر وابتعد عن الله من انتقد حبيبه . فالعمل الذي لله ويجلب حبّ الله للعبد هو حبّ حبيب الله ووليّه وعداوة من عاداه ، والعمل الذي للعبد هو العبادات التي فرضها الله .

وإذا علمنا أنّ العداوة محلّها بين المخلوقين ، فأين محلّ الحبّ مع وجود العداوة؟ قال تعالى ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** . . .﴾[3] المتبادر إلى الذهن أنّ العداوة هي مجال القتال والحرب بل الإبادة للعدو ، ولكن التعامل الأخلاقي هو الأساس في كل الأحوال في السلم والحرب ، وهو ما جاءت به الرسل عليهم السلام . والإصلاح مقدم على

---

(١) البخاري .

(٢) البخاري .

(٣) سورة فاطر : ٦ .

الدمار والإفساد . والعدو هو الذي يقصد إلحاق الأذى والضرر بل التدمير إن استطاع . فالتعامل الأخلاقي مع هذا العدو هو اتقاء شرّه ما أمكن وهذا يكفي في دفع الضرر . والأسباب التي أدّت أو تؤدي إلى العداوة هي التي يجب أن يكون عليها العمل . فإذا تحددت الأسباب ، فحُسن الخُلق هو العلاج الأوفى ، إذ يكون فيه التسامح والعفو والإحسان ، وقد تتغير العداوة إلى عكسها تماماً . قال تعالى ﴿ . . . **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[1] والسؤال هو كيف يكون التعامل مع الشيطان بهذا المعنى؟ والإجابة هي أن تعلم يقيناً أنك لا حول لك ولا قوة إلا بالله ، وأنّ الشيطان لا حول له ولا قوة إلا بالله ، وبهذا العلم لا يؤذيك هذا العدو بعداوته . قال تعالى ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[2] . فالمتبصِّر لا يجد في العداوة إلا إظهاراً لدوافع الحب الذي يجب أن يسود في نهاية المطاف ﴿ . . . **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ .

ومن المؤسف الخطير رغم آية ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ أنّ بعض الذين يدّعون

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ .

(٢) سورة النحل : ٩٩ .

تفسير القرآن يجعلون للشيطان سلطاناً على رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ، ويقولون إنّ الشيطان ينطق على لسانه ، وهذا يخالف القرآن والعصمة . فقالوا إنّ الشيطان سيطر عليه وهو واقف بين يدي الله يصلي وألقى على لسانه : «**تلك الغرانيق العلا وإنّ شفاعتها لترتجى**»[1] . كبُرت كلمة تخرج من أفواههم ﴿ . . . **إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا**﴾[2] . وجاءوا بحديث كذب قالوا فيه إنه قال «**إنّ عفريتاً من الجن جعل يفتك علي البارحة ليقطع علي الصلاة وإنّ الله أمكنني منه فذعته فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أو كلكم**»[3] .

إنّ الشيطان لا سلطان له إلا على مشرك به ؛ فهل يكون له سلطان على رسول الله؟ قال تعالى ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾[4] . فهل يقصدون أنّ رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله أشرك كما يعتقدون ليكون للشيطان سلطان عليه؟ أين مكان من يقول بذلك من قول الله سبحانه ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**

---

(١) الطبري .

(٢) سورة الكهف : ٥ .

(٣) مسلم .

(٤) سورة النحل : ١٠٠ .

وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ . . .﴾؟ وماذا بقي لهم من تصديقهم في صحة رسالته وهم يرون أنّ الشيطان يسيطر عليه وينطق على لسانه وهو واقف بين يدي الله؟ وكيف إيمانهم بما جاء به بعد اتهامهم له بهذا؟!! والرسول في اعتقادهم أقل منزلة من ﴿ . . . **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[1] الذين قال الله فيهم ﴿ . . . **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ . . .**﴾[2] عليهم . وكيف جاز لهم أن يُخرجوا الرسول من عباد الله الذين قال الله تعالى فيهم ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . .**﴾[3]؟ اللهم إلا أن يكونوا وصلوا إلى أسفل درك يعتقدون فيه أنّ النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ليس من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان!! وجاءوا بحديث فيه أنّ رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله كان له قرين كافر ولكن الله أعانه عليه فأسلم[4] والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ . . . **وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾[5] وكيف بالذي يعتقد في حديث القرين ويقول إنّ الشيطان نطق على لسان رسول الله

---

(١) سورة النحل : ٩٩ .

(٢) سورة النحل : ٩٩ .

(٣) سورة الحجر : ٤٢ .

(٤) مسلم .

(٥) سورة النساء : ٣٨ .

صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله أن يدّعي بأنه مسلم يؤمن بقول الله سبحانه ﴿ . . . **وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . . .﴾؟ وبقوله تعالى ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾[1] وقوله تعالى ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾[2]؟ يقول الرسول صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله لمن سأله عن الأخذ منه كتابة وهو في حالة مزحه أو غضبه «**أكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا الحق وأشار بأصبعه إلى فيه الشريف**»[3] .

كيف لأصحاب هذا المعتقد أن يتكلموا عن الإسلام بانتمائهم إليه ، وكيف يكونون من أهله ، وما عاد رسول الله مرجعية وأسوة لهم؟ فالرسول عندهم كان له قرين ويسيطر عليه الشيطان كما يقولون وهو قائم بين يدي الله ، وهو في اعتقادهم فقَدَ عقله لأنّ بعض السحرة سيطر عليه حتى كان يرى أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله!! هكذا رسولهم ومرجعيتهم وحاشا رسول الله محمد أن يكون كذلك . فالإسلام الذي جاء من عند هؤلاء هو دين لا مرجعية له ، لأنهم لا يعتقدون العصمة في من جاءهم به . وهذا قول منكر لا يمكن الأخذ به عند الذين يعتقدون أنّ الرسول حق . وبما أنّ الرسول حق فلا يصدر

---

(١) سورة النجم : ٣ .

(٢) سورة النجم : ٢ .

(٣) أبو داود .

منه خطأ ، وعصمته لا تعني عدم خطئه في اتباعٍ ، فهو المشرِّع المتّبَع وعصمته هي فعله . أما عصمة غيره ، إن وجِدت ، فهي عدم الخطأ في اتباع النبي صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله .

إنّ الذين يستشهدون بأنّ السِحر جائز على الرسل بما كان من سحرة فرعون مع موسى عليه السلام لقول الله سبحانه ﴿ . . . **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** ﴾[1] ليدللوا على صحة ما كذبوا به على رسول الله محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله بأنه سُحِر حتى كان يرى أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن لا يسعفهم ذلك للأسباب التالية :

أولاً ، إنّ ما كان من سحرة فرعون مقصود به مقارعة رسالة موسى في الملأ ليَثبُت للناس أنه لا تأثير للسِحر أمام ما جاء به رسول الله . فهي تؤكد عدم سيطرة السِحر على الرسل .

ثانياً ، التأثير من السحرة كان على أعين الناس وليس على النفوس قال تعالى ﴿ . . . **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ** . . . ﴾[2] ولم يكن على نفس موسى عليه السلام شيء من السِحر حتى يتصرف بغير إرادة ، كما قالوا في محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله سيد ولد آدم ، الذي شهِد الله له بأنه حق . فالقول بالسِحر على محمد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ما هو إلا

---

(١) سورة طه : ٦٦ .

(٢) سورة الأعراف : ١١٦ .

كذب وبهتان ممن وصفهم الله بالظالمين الضالين ، ونفاه الله سبحانه في محكم تنزيله ، قال تعالى ﴿ . . . **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾[1] . وهل هناك شك في قوله تعالى ﴿ . . . وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ حتى نصدِّق أنّ الساحِر أثر على عقل أعظم رسل الله؟ ولا يقول بسِحر رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله إلا الظالمون الضالون كما قال تعالى ﴿ . . . **فَضَلُّوا** . . .﴾ وهم الظالمون . وإنّي لأعجب ممن يصدِّق حديث السِحر ولا يصدِّق الله سبحانه في نفي السِحر ووصفه لمن يقولون به بالظالمين والضالين .

ثالثاً ، أما قوله تعالى ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى**﴾[2] إنما يدل على خوف موسى من أن يكون قد أغلظ على عباد صالحين ، لأنّ موسى عليه السلام خشي أن يكون أولئك السحرة من الصالحين رغم ما يظهر من مخالفتهم لشريعته . وذلك لِما كان من أمر موسى مع العبد الصالح عند مجمع البحرين ، حين أنكر أفعاله التي كانت مخالفة لشريعته في خرق السفينة وقتل الغلام . وقد أغلظ موسى القول على السحرة حين مواجهته لهم ، كما أغلظ من قبل على العبد

---

(١) سورة الإسراء : ٤٧-٤٨ .

(٢) سورة طه : ٦٧ .

الصالح بعد أن وعده بالصبر على أفعاله حينما قتل الغلام ، فلم يتمالك موسى عليه السلام نفسه حينها واعترض بكل حدّة وأنكر تلك الفعلة بشديد القول ﴿ . . . **قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾[1] فرد عليه العبد الصالح وكان ردّه على موسى فيه من الشدّة ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾[2] مذكراً إياه بوعده الذي قال فيه ﴿ . . . **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾[3] . فإذا بموسى عليه السلام يجد نفسه يحتدّ كذلك في اعتراضه هنا على السحرة ﴿**قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**﴾[4] فكان هذا سبب خوفه . وهو أنه قد يكون أغلظ على عباد ربما يكونون من الصالحين كالعبد الصالح الذي لقيه من قبل عند مجمع البحرين ، فلقد خاطبه السحرة بكلّ أدب ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى**﴾[5] فخوفه من الله ، وليس من السحرة ، لما كان من حدة بدرت منه عند

---

(١) سورة الكهف : ٧٤ .

(٢) سورة الكهف : ٧٥ .

(٣) سورة الكهف : ٦٩ .

(٤) سورة طه : ٦١ .

(٥) سورة طه : ٦٥ .

مواجهتهم ، وما كان من أدبهم في مخاطبته . فأوحى إليه الله سبحانه ﴿ . . . **لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى** ﴾[1] وإن كانوا صالحين . وقد صح توجس موسى إذ إنّ السحرة كانت خاتمة أمرهم الإيمان بالله ورسوله ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾[2] . ولا يقول بخوف موسى من السحرة إلا جاهل بكتاب الله ، فإنّ موسى قبل أن يجيء إلى فرعون هو وأخوه هارون عليهما السلام التجاَ إلى الله سبحانه ﴿**قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾[3] فكيف يكون خوف موسى عليه السلام من السحرة بعد أن سمع من الله سبحانه أنه معهما؟ وهل يشك موسى عليه السلام في معية الله بعد كلامه معهما؟

رابعاً ، إذا كان السِحر يُدفع بالقرآن فمحمّد صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله ما تيسّر القرآن إلا بلسانه . وهو حقّ فكيف يغلب السِحرُ الحقّ؟

ولو قيل في أحد مشايخهم إنّ ساحراً أثّر على عقله وأصبح يهذي في تصرفاته لما سلِم القائل من شرهم . وموسى عليه

---

(١) سورة طه : ٦٨ .

(٢) سورة طه : ٧٠ .

(٣) سورة طه : ٤٥-٤٦ .

السلام دفع السِحر بعصاه ولم يكلف نفسه بقراءة آية من التوراة . والله سبحانه يقول ﴿ . . . **وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾[1] فكيف يقولون إنّ ساحراً أفلح في التأثير على عقل محمد رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله حتى كان يرى أنّه يأتي النساء وهو لا يأتيهن؟؟

نخلص مما سبق أنّ السِحر والشيطان لا يؤثران على عباد الله الصالحين الذين يؤمنون يقيناً أنّه لا حول ولا قوة إلا بالله . وبهذا اليقين تنتفي العداوة . وبما أنّ الحبّ هو الأساس في الوجود فالسنن الكونية مسارها التناسق والمحبّة والسلام ، وبهذا جاءت الرسل عليهم السلام من الله سبحانه ، لتعليم الناس ما ينبغي أن يكون عليه المرء من معرفة نفسه ولخلق المجتمع الفاضل . فوجود العداوة هو الذي يتطلب وجود المقابل الذي يجب أن يكون ضدها ؛ وهو إظهار المودة والعفو والإحسان ؛ فهذه هي التي تزيل العداوة . فالعداوة إذاً ليس وجودها في سنن الكون إلا لإظهار الضدّ لها وهو دوافع الحب . فلولا القبح ما عُرِف الجمال . فسبحان مدبّر الكون المعلِّم بالأضداد .

---

(١) سورة طه : ٦٩ .

المآل

إذا كان الأصل في الوجود هو الحبّ ، وما هذه الحياة الدنيا إلا معبر للوجود الخالد الدائم فلماذا خلق الله جهنم؟

أرسل الله سبحانه رسله عليهم السلام للناس لخلق المجتمعات الفاضلة وإرساء حُسن التعامل والفضيلة مبشرين ومنذرين . وليبينوا للناس أنّ هذه الدنيا فانية ، وما هي إلا فترة انتقالية قبل الوصول إلى دار القرار . فعلى الناس الالتزام بما أوحاه الله إلى رسله للوصول للسعادة الدائمة الخالدة . وخلق الله سبحانه هذا الكون في غاية الكمال والإبداع ؛ وكما ذكرنا أنه لا يرى عظمة كمال فعل الله في هذا الكون إلا من اختصه الله وبلغ درجة من الكمال الرباني يرى بها الأشياء كما هي . وقد جاء في الأثر «**اللهم أرنا الأشياء كما هي**»[1] وتمتاز الأشياء في هذا الوجود بأضدادها . ولولا ذلك لا يُعرَف المليح من القبيح . ومن كمال الإبداع في الخلق أنّه سبحانه خلق إبليس وأعطاه حقّ الغواية إلى يوم البعث ، وجعل لكلّ نبي عدواً من المجرمين ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ**

---

(١) صيد الخاطر .

الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . .﴾(١) . فلولا تباين الأشياء ووجود الأضداد لما كانت معرفة ﴿ . . . **وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . .**﴾(٢) . ﴿ . . . **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ . . .**﴾(٣) . فلولا عداوة المجرمين وسوء الخُلق لما عُرِف حُسن الخُلق الذي بُعِثت من أجله الرسل ، وحُسن الخُلق هو المقصود أن يسود في الحياة الخالدة قال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**والذي نفسي بيده لا يدخلن الجنة أحد إلا بحُسن الخُلق**»(٤) وقال أيضاً «**الدين حُسن الخُلق**»(٥) وقال صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً**»(٦) . فظهور العداوة والمشاحنات تبعث في الناس الرغبة في السلام والحبّ . فإبليس خلقه الله سبحانه لتبيين الجانب الذي يجب على المرء اجتنابه وأوضح ذلك لعباده ، وأرسل إليهم الرسل ليعينهم على

---

(١) سورة الأنعام : ١١٢ .

(٢) سورة هود : ١١٨-١١٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥١ .

(٤) ابن عساكر .

(٥) إحياء علوم الدين للغزالي .

(٦) الترمذي .

ذلك ، وعلى الإحسان والخُلق الذي يجلب السعادة في الدنيا والآخرة ﴿**هُوَ الَّذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْده آيَات بَيِّنَات لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِـيمٌ**﴾(١) وأوضح لهم سبحانه أنّ من اتبع الشيطان فمصيره إلى جهنم في الآخرة كي يجتنب الناس ما يدعو إليه الشيطان ، وذلك للقاسية قلوبهم والذين يسمعون القول فلا يتبعون أحسنه ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾(٢) .

وجهنّم هي من الأمور المتعلقة بالدار الآخرة وليست بهذه الدار الفانية ، ولكن ما يتعلق بها هنا هو كيفية التعامل المفضي إلى دخول جهنم في الحياة الباقية . فخلق الله سبحانه إبليس وجعله داعياً للسلوك المفضي إلى النار ، وبيّن سبحانه ذلك لعبّاده وأرسل رسله لتبيين الحقّ للعالمين ﴿ . . . **وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾(٣) . فمن الناس من هو مجرم لا يستجيب للرسل بالبلاغ إلا إذا كان هناك إنذار بعذاب أو عِقاب ، لغلظة في قلبه وقسوة . فإذا عَلِم الإنسان أنّ ذاته معرضة لعذاب دائم في اليوم الآخر في جهنم فإنّ ذلك يوقظ فيه حبّ الذات ،

---

(١) سورة الحديد : ٩ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٨ .

(٣) سورة الأنعام : ٣٥ .

فيلجأ إلى ما يمكن أن يتقي به ما يعرِّض ذاته للعذاب الدائم . قال تعالى ﴿ . . . **وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1] فما العذاب أو التهديد بالعقاب في هذه الدنيا إلا ليجتنب الناس ما يوقعهم في العذاب الخالد وليرجِعوا إلى الله . فليس القصد هو العذاب والعقاب في الآخرة بل إنما جُعِل ذلك إنذاراً من الله ليخوِّف به عباده ليجتنب الناس السلوك المفضي إلى النار الخالدة قال تعالى ﴿**لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**﴾[2] . ولا يكون اجتناب ذلك إلا بحُسن الخُلق وإفشاء السلام والمحبة . قال تعالى ﴿**مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾[3] . فما المقصود إلا أن يصل الناس مرتبة من حُسن الخُلق تؤهلهم ليكونوا أهلاً لجنات النعيم . وليس في الوعيد بعذاب جهنّم سلب للحرية التي جاءت بها الأديان ، لأنّ جهنم ليست للذين صبغوا حياتهم بحُسن الخُلق إنما هي إنذار لإصلاح المجرمين .

ولا يجوز لأحد أن يسأل لماذا يعذبنا الله لأنّ هذا السؤال يفترض وجوب العذاب على الله . ولكن لا يجب على الله

---

(١) سورة الزخرف : ٤٨ .

(٢) سورة الزمر : ١٦ .

(٣) سورة النساء : ١٤٧ .

شيء فإن شاء عذّب وإن شاء عفا . وهذا من الشأن الإلهي الذي ليس للإنسان فيه قول . فلا يحقّ لأحد أن يجزم بأنّ الله سوف يعذب أحداً من الناس لأنّه سبحانه ﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾[1] . فالوعد حقّ لازم ﴿**وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ . . .**﴾[2] أما الوعيد فغير ملزم . ﴿ . . . **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ . . .**﴾[3] ﴿ . . . **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ . . .**﴾[4] قال تعالى ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . . .**﴾[5] فالمنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار قد يتوب الله عليهم قال تعالى ﴿ . . . **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[6] فهناك نوع من النفاق يكون نتيجة للإكراه والخوف على النفس . قال رسول الله صلى الله وبارك عليه ووالديه وآله «**إنّ الله قد وضع**

---

(١) سورة البروج : ١٦ .

(٢) سورة البقرة : ٨٠ .

(٣) سورة النجم : ٣٢ .

(٤) سورة الرعد : ٦ .

(٥) سورة الزمر : ٥٣ .

(٦) سورة الأحزاب : ٢٤ .

عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1] والعاقل من الناس هو من يُعمِل العقل فيما أرسل الله به رسله في كيفية التعامل ويظن بالله خيراً ، ففي التوجيه والتعليم النبوي «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسِن الظن بالله»**[2] وفي الحديث القدسي «**أنا عند ظن عبدي بي»**[3] وقال سبحانه في محكم تنزيله ﴿ . . . **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[4] ومن الظالمين لأنفسهم أولئك الذين لا يحسنون الظنّ بالله قال تعالى ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّـهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾[5] فالعبد إذا أحسن التعامل في هذه الحياة وأحسن الظن بالله فقد استدعى معية الله . . . قال تعالى ﴿**إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[6] .

---

(١) ابن ماجة .

(٢) مسلم .

(٣) البخاري ومسلم .

(٤) سورة النحل : ١١٨ .

(٥) سورة الحج : ١٥ .

(٦) سورة النحل : ١٢٨ .

الفهرست

مفتتح	5
مقدمة	9
الأجل	13
الدعوة بالأخلاق لا بالمعجزات	17
الإرهاب الفكري باسم العِلم	33
الدعوة المحمّدية	41
الحبّ مكمن السعادة	55
بين الخوف والحزن	63
القضاء المطلق والمقيَّد	65
المعصية والاستكبار	71
الوطن	87
الرحمة المهداة	111
النّبي الأمّي	125
لا حبّ لناقد	137
العداوة	153
المآل	165